أصل الحكاية

رواية

محمد عبد العاطي السيد

أصل الحكاية

محمد عبد العاطي السيد

الطبعة الأولى: يناير ٢٠١٦ .

تصميم الغلاف: محمد مجدي

تدقيق لغوي: هبة النجار

المدير العام: رباب الشهاوي

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: **2015/2٥٣٢٣**

رقم الإيداع الدولي:**ISBN: 978-977-6534-07-0**

Alfouad_publishing@hotmail.com

facebook.com/fouadpublishing





أصل الحكاية

روايــة لـ

محمد عبد العاطي السيد



إهداء

إذا أردت خوض حرب مع العدو فتأكد من وجود ألف رجل إلى جانبك..

و إذا أردت خوض حرب مع الحياة فتأكد من وجود إمرأة واحدة إلى جانبك ..

إلى المرأة التي جعلت حربي مع الحياة ممكنة ..

إلى أمي ..

لكم أتعبتك ..

(١)

فتح عينيه في صعوبة، من خلال الغمامة الثقيلة أمامهما رأى حذاءه المغبر وطرفي سرواله اللذين تزينا ببقع الدماء الجافة. حاول رفع رأسه فبدا وكأن عظام رقبته قد انحلت، استسلم لجذب الأرض لها، وكف عن محاولته. شعر بدماء جافة على جانب وجهه منبعها أعلى رأسه، ومصبها عند ذقنه.. هم برفع يده ليتحسس جرح رأسه، ليشعر للمرة الأولى بالقيد المحكم حول معصميه وقد أسدلا أمامه، رفع ذراعيه معًا، ولمس بأصابعه فروة رأسه ليجدها قد غارت داخل جرحه، أسقط ذراعيه مرة أخرى أمام عينيه، فرأى كفه وقد تغطت بالدماء..

فجأة أحس بجدران الحجرة التي يسكنها تهتز من شدة الهتاف والصريخ خارجها، أصوات بدت وكأنها نشأت من العدم، من السكون المطبق إلى الصريخ الهادر، من موت الصوت إلى إحيائه بصخب.. ميز وسط الهتاف تهليلًا وتكبيراً لم يعرف له سبباً.. استمر الهتاف قرابة ربع الساعة، أو هكذا مرت على عقله المجهد، حتى توقف الصوت فجأة كما بدأ ودون مقدمات، حتى ظن أنه قد خُيل إليه أو أن سمعه قد خانه كما فعل باقي جسده، لولا أن أحس بباب غرفته يفتح في بطء، ليدلف إليها شاب عريض الكتفين قوي البنيان غطى نصف وجهه بلثام أسود بلون ملابسه.

رفع رأسه الجريحة مستنزفًا ما تبقى من قوته، فالتقت عيناه بعيني الشاب اللامعتين للحظة كانت كافية ليدرك ذكاءه المتقد، اقترب الشاب منه وهو مميل رأسه يتفحصه في اهتمام، ثم عاد إلى الباب الموارب، وفتحه عن آخره، وهز رأسه بالإيجاب، قبل أن يتنحى عن مدخل الغرفة مطأطئًا رأسه في احترام، ليدخل رجل في منتصف العمر ذو لحية كثيفة، مشدود الجسد،

يرتدي جلبابًا فضفاضًا ذا أكمام واسعة، تقدم ناحيته في حين أغلق الشاب باب الغرفة، ووقف وراءه وقد ضم كفيه فوق بعضهما إلى جسده في هدوء.

اقترب الرجل منه أكثر، وجذب مقعدًا معدنيًا من ركن الحجرة أصدر صوت احتكاك قوائمه بالأرض صريرًا، جذبه في تراخٍ، ووضعه على بعد خطوتين منه، ثم جلس في بطء مواجهًا له، وعلت شفتيه الغليظتين ابتسامة راحة متشفية، ثم تنهد قائلًا:

ـ "أخيرًا"

** ** **

(٢)

تعالت ضحكات الفتيات على جانب الترعة وهن يغسلن بعض الثياب في ماء الترعة الآسن، ويتبادلن الأحاديث الهامسة عن شباب القرية، وكيف تنقلب أحوالهم عندما يصادفون (مريم).. روح القرية النابضة، وزهرتها المبتسمة.. يذكرون (درويش) الذي ما أن مرت أمامه بالأمس حتى انتفخت أوداجه إلى الحد الذي احمر معه وجهه، وظهرت عروق رقبته وجبينه جلية، محاولًا إظهار عضلات ساعديه وصدره لجذب انتباهها، وما كان باقي شباب القرية بأوفر حظًا منه معها، وهي تصرف نظرها عن هذا وذاك طوال طريقها اليومي بالغداء من بيتها إلى الأرض التي يفلح بها والدها، عائدة إلى البيت مرة أخرى، ذلك الطريق الذي أصبح مقصدًا للشباب ساعة انتصاف الشمس فوق الرؤوس.. ألقت إحدى الفتيات كلامًا عن (سيد) في خبث وسط حديثها، فاحمر وجه (مريم) حياء.. وحده (سيد)، تمر أمامه فيلقي ببصره إلى الأرض، وترسل هي نظرها بعيدًا، ورغم ذلك تشعر بأنها تراه ويراها دون أن تلتقي عيونهما، قاطعت أفكارها بعض قطرات المياه التي ألقيت على وجهها من إحدى الفتيات، فضحكت وهي تحاول رد هديتها إليها، عندما تناهى إلى مسامعهن صوت مكابح إطارات سيارة على الطريق الترابي ورائهن، التفتن في حركة واحدة ليطالعهن وجه (صابر) مخرجًا رأسه من شباك سيارته الأنيقة، محملقًا فيهن عبر نظارته الشمسية باهظة الثمن.

(صابر) الابن الوحيد لعمدة القرية (الصالح قنديل)، بثقل شخصيته وأفعاله، نزح إلى القاهرة ليتلقى تعليمه، ثم يلتحق بعدها بكباريهات ومواخير شارع الهرم، يعود إلى القرية لينهب من مال أبيه الذي ينهب بدوره من أموال الفلاحين والجمعيات الزراعية التي تصب بين يديه،

يقولون يخلق من ظهر العالم فاسد ومن ظهر الفاسد عالم.. (صابر الصالح قنديل) كان مثالًا للفاسد الذي يُخلق من ظهر أكثر فسادًا وإفسادًا.. (الصالح قنديل) -الذي لم يكن له أي نصيب من اسمه- يملك معظم أراضي القرية بوضع اليد، يستأجر الفلاحين في أرضهم، ثم يرمي لهم بالفتات، مما لا يسد رمق، أو يكفي عوز.

أسرعت الفتيات بوضع خُمرهن على وجوههن استتارًا منه، فخلع نظارته هاتفًا:

ـ "البت (مريم) هنا؟ لحسن أبوها بيموت وباعتني أخدها في العربية علشان نظرة الوداع"

نهضت (مريم) حاملة صحن الملابس على رأسها، وانصرفت دون أن تنطق بكلمة واحدة، في حين هتفت إحدى الفتيات في حنق:

ـ "ما يصحش اللي بتعمله ده كل يوم والتاني يا سي (صابر).. أهل البلد لو عرفوا إنك بتتعرض لنا في الرايحة والجاية كدة مش هتعدي على خير"

طوح (صابر) بذراعه ناحيتها في لامبالاة، ثم نزل من سيارته واتجه ناحية (مريم):

ـ "إيه يا بت مش بكلمك؟"

جدت السير لتبتعد عنه، فهتف وهو يتبعها:

ـ "طب مش هتقوليلي عيب كده إنتِ كمان؟"

غمغمت في ضيق:

ـ "إن طلع العيب من أهل العيب.. ده طبعك ولا هتشتريه"

ـ "دِه!! تصدقي يا بت أنا بنزل البلد مخصوص علشان أسمع لهجتك الفلاحي"

ـ "وإنت ايه اللي عوج لسانك يا ابن مولانا (الصالح)!؟"

قهقه في سخرية:

- "مولاكِ غصبن عنك يا بت"

- "بأمارة إيه؟ ده كل صلاة جمعة بيشاوروله على اتجاه القبلة في الجامع"

قهقه مرة أخرى بأنفاس متقطعة من أثر السعي وراءها:

- "لسانك مبرد يا بنت الإيه.. بس دمك زي العسل"

مد يده ليمسك ذراعها، فانتفضت وجذبت يدها ناحيتها، والتفتت إليه بجسدها صارخة:

- "إنت بتمد إيدك عليا يا أبو وش مكشوف!؟"

مد يده ناحيتها مرة أخرى، وهو يقول في سماجة:

- "آه.. وأمدها تاني كمان.."

ابتعدت عن يده في سرعة، وتلفتت حولها في جزع تتلمس العون من الشباب الواقفين ينظرون إلى المشهد في مداراة، فعلا صوته، وهو ينظر إليهم:

- "ولا حد منكم يستجري يرفع عينه فيا! إجري يله إنت وهو من هنا لخلي الغفر يلموكوا من قفاكوا واحد واحد!"

انفض جمع الواقفين في لحظات.. كل إلى حال سبيله، ولم يبقَ في الطريق سواهما، فاقترب أكثر منها مبتسمًا في سماجة.

- "إيه اللي موقفك كده في عرض الطريق يا بنت شيخ الجامع؟"

التفتا معًا إلى مصدر الصوت، فطالعهما وجه (سيد) الأسمر المنحوت، وقد عقد حاجبيه في قلق، أسرعت (مريم) بالالتفاف حوله لتقف وراء ظهره محتمية به، في حين هتف (صابر) في توتر:

- "تاني يا (سيد)!؟ بتتعرضلي تاني؟ المرة اللي فاتت ضربت الغفرا اللي كانوا معايا وأنا اللي خليتهم ما يقولوش للعمدة رغم إني عارف إن العمدة منك

إنت وأبوك على حرف.. لكن أنا ميرضينيش أذيتك علشان خاطر عشرة المدرسة القديمة"

ابتسم (سيد) بجانب شفتيه في سخرية:

ـ "مكانتش عشرة يا (صابر).. أني كنت بديلك اللي ينجحك لجل ما أحوش أذاكم عني وعن أبويا.. لولايا ماكنش زمانك رحت الجامعة في مصر تكمل تعليمك"

ـ "وأنا شايلهالك لحد دلوقتي.. وكف أبويا اللي بتطول الكل مغلولة عنك وعن أبوك"

ـ "أبوك مالوش حاجة عندنا علشان يغل إيده أو يطلقها"

أزاحه (صابر) جانبًا، ومد يده ليمسك بذراع الفتاة:

ـ "اعقل يا (سيد)، وابعد عن طريقي.. مالكش دعوة باللي أنا بعمله"

قبل أن تصل يده إلى مقصدها أمسك بها (سيد) في حزم:

ـ "لو واحد تاني كنت قلت القعدة في مصر مسحت طبايعنا من دماغه.. لكن إنت زي ما رحت زي ما جيت يا ابن العمدة.. أني مش هوسخ ريحتي اللي من طين أرضي بريحتك اللي بألفات من عرق الغلابة"

ثم وضع كفه على وجه (صابر)، ودفعه بعنف، فوقع على ظهره كشوال تبعثر ما بداخله، أدار (صابر) بصره في ذهول وهو مازال ملقى على الأرض، فوجد كثير من أهل القرية قد تجمعوا على صوت شجارهما، فهب قائمًا وهو ينفض ثيابه بيديه، ونظر إلى سيد بعينين متسعتين من الجنون، ثم مر من جانبه عائدًا إلى حيث ترك سيارته دون أن ينطق بكلمة واحدة.

*****

رفع (سالم الحسنين) لقمة الطعام إلى فيه، قبل أن يعلو صوت الطرقات على باب الدار الخشبي. وضعها من يده وهو يدعو الله بالخير من ذلك

القادم على موعد طعام، نهضت زوجته لتدخل الحجرة الجانبية للدار مسرعة، في حين هب (سيد) ليفتح الباب مستفهما عن سر تلك الطرقات الثقيلة المتعجلة، فتح الباب ليرى شيخ الخفر واقفا أمامه..

ـ "أبوك فين يا (سيد)؟ أني فُت عليه في الغيط مالقتهوش"

أشار (سيد) بيده إلى الداخل.

ـ "ده رجع من الغيط علشان يتغدي يا عم (منيسي).. تعالى ادخل"

ـ "لا معلش وقت تاني.. ناديلي أبوك بس"

صاح (سالم) من داخل الدار:

ـ "تعالى يا (منيسي)!"

خطا (المنيسي) إلى داخل الدار وهو يتنحنح متشبثًا بحزام بندقيته المعلقة على كتفه، والتي طالما اعتز بامتلاكه لها.. لم تنسَ البلدة يوم صحوتها على صريخ (المنيسي) إثر اختفاء بندقيته، خرج إلى الشارع نائحًا يحثو التراب على رأسه، صارخًا في وجوه من تحلقوا حوله يتهمهم بسرقة بندقيته (الميري)، متوعدًا بنبش بيوتهم واحدًا تلو الآخر حتى العثور عليها أو حبسهم جميعًا في حجز المركز الضيق حتى تظهر، وفي وسط هياجه دقق النظر من خلال الغبار حوله، فتبين ابنه حاملًا البندقية عائدًا بها من رحلته لإثارة إعجاب زملائه، فانقض عليه يكيل له الشتائم واللكمات صارخًا أنه يفضل التفريط فيه على أن يفرط في عهدة الحكومة، حتى كلّت يداه من الضرب، وتلاحقت أنفاسه، فاحتضن بندقيته، ثم دلف إلى داره، وأغلق بابه في وجوه الواقفين.

أحنى (المنيسي) رأسه، وهو يدخل الدار قائلًا:

ـ "يا رب يا ساتر! عايزينك عند العمدة يا (سالم)"

ـ "مين اللي عايزني عند العمدة؟"

ـ "العمدة بذات نفسه"
اعتدل (سالم) في جلسته، ونظر إلى (سيد) في قلق.
ـ "وعايزني في إيه العمدة؟"
ـ "معرفش"
ـ "يعني قالك روح هاته ليه؟"
ـ "برضك معرفش"
ـ "أومال مين اللي يعرف!؟"
ـ "أي حد غيري.. أني اللي إتقالي بالكلمة روح هات (سالم الحسنين) على إيدك.. وإنت عارف أني عبد..."
قاطعه (سالم)، وهو يزفر في ضيق:
ـ "عبد المأمور عارف"
ـ "لأ.. عبد المأمور إيه؟ إذا كان المأمور نفسه مأمور من العمدة.. كلنا خدامين لقمة العيش يا (سالم)"
احتد (سيد) هاتفًا:
ـ "روح يا عم (منيسي) قول للعمدة (سالم الحسنين) مش جاي.. إحنا مش عبيد حد غير اللي خالقنا.. ولقمة العيش دي هو بس اللي بيديهالنا مش حد تاني"
التفت (المنيسي) إلى (سالم) مرة أخرى قائلًا:
ـ "قوم معايا يا (سالم) الله يهديك.. ما تأذنيش وتأذي نفسك من قبلي"
أطرق (سالم) برأسه في حين استطرد (المنيسي):
ـ "ما تسمعش كلام ابنك يا (سالم).. العمدة كان بيكلمني وعينيه بتطق شرار"
رفع (سالم) رأسه قائلًا:

ـ "كلام ابني هو كلامي اللي زرعته جواه طول عمري يا (منيسي).. روح للعمدة قوله (سالم) مش محتاج منك حاجة علشان يجيلك مطاطي راسه.. لو هو اللي عايز مني حاجة يشرف.. ضيف نشيله فوق دماغنا"

هتف (المنيسي) مستنكرًا:

ـ "ضيف!!؟ العمدة بقى ضيف يا (سالم)!؟ أني لجل العيش والملح اللي بينا يا (سالم) هقول للعمدة إني مالقتكش في الدوار.. على ما تكون هديت كده أرجع آخدك بعد صلاة المغرب"

ـ "قوله اللي قولتهولك يا (منيسي).. أني لا رايح ولاجاي.. نهاية القول"

اتسعت عينا (المنيسي) في رعب:

ـ "لأ.. ده مش نهاية القول يا (سالم).. ده بداية القول والفعل وإنت الصادق.. العمدة نابه أزرق.. أزرق كوبية.. ولو وصله اللي إتقال ده مش هيعديها بالساهل يا (سالم).. أني خايف عليك"

ـ "ما ياخد الروح إلا اللي واهبها"

اعتدل (المنيسي) في وقفته، وتمتم:

ـ "استرها يا رب! استرها يا رب!"

خرج من الدار وهو ما زال يتمتم دعاءه، فأغلق (سيد) الباب وراءه، والتفت إلى أبيه الذي نظر إلى داخل عينيه قائلًا:

ـ "إنت عارف العمدة عايزني ليه يا (سيد)"

اقترب (سيد) منه، وجلس أمامه لحظة خروج أمه من حجرتها شاحبة الوجه.

ـ "أني هاحكيلك اللي حصل يا آبا.."

*****

تسلق الغبار سماء البلدة مبتعدًا عن الأرض، بعد أن هيجته حوافر الفرس العدّاءة، على جانبي الطريق توقف أهل القرية عما كانوا يفعلونه وهم يتهامسون في حيرة:

ـ "دي كرتّة العمدة.. واخد في وشه ورايح بيها على فين الساعة دي!؟"

ـ "جيب العواقب سليمة يا رب!"

بعدها بدقائق توقفت (الكرتّة) أمام دار (سالم)، ونزل منها العمدة طويل القامة، عريض البنيان ممتلؤه، عاقدًا حاجبيه وقد ظهر على وجه المستدير أعتى علامات الغضب، عدل من انسدال العباءة الصوفية فوق كتفيه، نظر إلى المتجمعين في فضول حول (الكرتّة) بصرامة ألجمتهم، قبل أن يخطو ناحية باب الدار، ويلكمه بقبضة يده ثلاثًا.. أتاه الصوت من الداخل متسائلًا عمن بالباب، فخرج صوته غليظًا يملؤه الكبر:

ـ "أني العمدة (الصالح)"

مرت ثوان نظر خلالها وراءه في غضب إلى أعداد الناس المتزايدة، قبل أن يفتح (سالم) الباب هاتفًا:

ـ "يا مرحب بحضرة العمدة.. شرفتني وشرفت البيت كله بخطوتك المباركة"

استند العمدة إلى عصاه الأبنوسية، ونظر إلى داخل عيني (سالم).

ـ "أديني جيتلك يا (سالم).. بس مش علشان إني عايز منك حاجة لأ.. ده لجل ما أحوش عنك أذية إنت مش قدها"

تنحى (سالم) جانبًا عن مدخل الباب، وأشار إلى الداخل قائلًا:

ـ "طب اتفضل نتكلم جوه يا حضرة العمدة"

ـ "أني مش جاي أضايف يا (سالم).. أني جاي أقولك كلمتين خدت بيهم يبقى خير وبركة.. مخدتش بيهم يبقى بتفتح على نفسك مشاكل إنت في غنى عنها"

ظهر (سيد) في تلك اللحظة من وراء والده، وعلى وجهه آثار نعاس مقطوع، فرفع العمدة طرف عصاه، وأشار بها إليه في غضب:

ـ "ابنك اتطاول على ابني قدام الناس.. واللي يتطاول على ابني يبقى اتطاول عليا أني نفسي.. وأني اللي يتطاول عليا أخليه عبرة قدام الناس، وبعدين أقطعله إيده اللي فكر يمدها عليا.. لولا إني عامل خاطر ل اللقمة اللي كان بيحطها أبوك جوا جوفي، وابني لسة باقي على مخاويته لابنك"

ـ "والمطلوب يا عمدة؟"

ـ "زي ما اتخانقوا قدام الناس يتصافوا، وقدام الناس برضك"

ـ "يتصافوا قدام الناس إزاي يا عمدة؟"

ـ "ابنك غلط يا (سالم) يبقى لازم يعتذر لابني قدام الناس، ونفض الموضوع ده بقى، وكل واحد يشوف حاله.. مش دي الأصول يا (سالم)"

هتف (سيد) في حدة:

ـ "أي أصول يا عمدة!؟ الأصول اللي ابنك ماراعاش منها في بنات الناس!؟"

رفع العمدة صوته قائلًا:

ـ "إنت كمان لسة ليك عين تتكلم يا (سيد)!؟ إش حال ماكنت كل سنة بتبقى في الدوار لجل ما تاخد هدوم (صابر) اللي قدمت عليه.. والجلبية اللي على جتتك تشهد.. صحيح يا ولاد اللي عنده صدغ أحسن من اللي عنده عزبة"

أمسك (سيد) بطرفي ياقة جلبابه، وجذبها حتى انقطع الجلباب إلى ذيله، ثم خلعها عن جسده، ووقف عاريًا إلا من سروال قماشي قصير يستره، وألقاها عند قدمي العمدة قائلًا:

- "كده مالكوش عندي حاجة يا عمدة.. أكرملي أتعرى قدام الناس، وأقلع هدوم مالهاش قيمة عن إني أتعرى قدام نفسي، وأذل نفسي اللي قيمتها عندي كبيرة وعزيزة"

احتقن وجه العمدة، وحول بصره إلى (سالم) قائلًا:

- "سامع كلام ابنك يا (سالم)؟"

تكلم (سالم) في هدوء:

- "خلّي ابنك يبعد عن (مريم) يا (صالح).. أني خطبتها لـ(سيد) ابني.. وبقت ملزومة من راجل يقدر يدافع عنها ويحميها"

مال عليه العمدة رافعًا حاجبيه، ومرددًا:

- "(صالح)!!؟ طب خلّي بالك يا (سالم).. من عرف مقداره بات آمن في داره"

قالها، وهز عصاه، واستدار متجهًا إلى عربته، والناس تُخلي له ممرًا ممهدًا من خوف، وما إن اعتلى العربة حتى هتف (سيد):

- "استنى يا عمدة!"

انحنى على الأرض، وحمل الجلباب الممزق، وخرج وسط الناس بجذع عارٍ، ثم ألقاه داخل الكرتّة عند قدمي العمدة قائلًا:

- "جلبية (صابر).. وباقي هدومه اللي عندي هسرّها وأجيبهالك الدوار الصبح"

ازداد احتقان وجه العمدة، وألهب ظهر الفرس بسوطه فانتفضت تعدو

وسط الواقفين إلى المكان الذي جاءت منه، مخلفه وراءها غبارًا كدخان لنار اشتعلت، ولن تنخمد.

*****

في الليل تعالى صوت الطرقات على باب الدار، فنهض جميع من فيه يتخبطون، اللكمات والشتائم تنهال على الباب الصامد قبل أن ينهار منصرعًا على الأرض، ويقفز من فوقه الرجال ذوي الملابس الحكومية البيضاء المنذرة بالشر، صرخت المرأة، فدفعها زوجها إلى داخل الحجرة، وأغلق بابها عليها، هتف مستفهمًا عما يحدث، فلم يجد ردًا غير زحف الرجال إلى حجرات الدار، دارت عيناه في صحن الدار، حتى لمح شيخ الخفر (المنيسي) منزويًا على نفسه داخل أحد الأركان، فزع إليه صارخًا:

- "في إيه يا (منيسي)؟"

هز (المنيسي) رأسه في حسرة:

- "مش قولتلك يا (سالم) الموضوع مش هيعدي على خير!"

- "العمدة قدم فيا بلاغ؟"

ردد (المنيسي) في سخرية مكسورة:

- "بلاغ!؟ (محمود بيه نجم) قاعد في العربية برة"

اتسعت عينا (سالم) عن آخرهما:

- "المأمور!!؟ ليه كل ده يا (منيسي)!؟"

قاطع حديثهما هتاف ابنه في وجه أحد العساكر، وهو يسد باب الحجرة التي دخلتها أمه:

- "في حريم جوه.. حريم البيت جوه يا (مزغود)!"

ازداد تشبث العسكري به، فدفعه في صدره بقوة جعلته طريح الأرض، اندفع باقي العساكر للانتصار لصاحبهم لولا أن خرج أحدهم من حجرة

جانبية هاتفًا بأنه وجد مبتغاهم في البحث، حاملًا في يده لفافة ضخمة، تحلق الرجال حول (سالم) في سرعة، وجذبوه إلى خارج الدار في غلظة، حتى توقفوا أمام عربة ملاكي، في مقعدها الخلفي اضجع في تكاسل رجل رفيع طويل القامة، اقترب منه العسكري الذي وجد اللفافة، وهمس إليه ببعض الكلمات، فهز أصابعه في تراخٍ بمعنى أحضروه، جذبه العساكر حتى ألقوه بداخل العربة الحكومية، واندفع (سيد) يلقي بجسده خارج الدار، فتلقاه (المنيسي) بين ذراعيه هامسًا داخل أذنيه:

ـ "لو روحت معاه هيحبسوكم إنتوا الاتنين وأمك هتتبهدل عليكم.. خليك معاها على ما الصبح يطلع يكون ربنا قضى بالخير"

*****

غطى (طُلبة) أذنه بكف يده محاولًا فهم ما تقوله زوجته عبر هاتفه الشخصي، صخب المحكمة حوله لا يفوقه إلا صريخ وعويل محدثته التي تتكلم من بين دموعها ولا تكاد تبين، حاول تهدئتها لفهم ما تقول:

ـ "اتكلمي بالراحة وعلى مهلك يا (شريفة).. أنا مش فاهم حاجة"

ـ "بقولك أبويا اتقبض عليه"

سألها عن السبب، فحكت له ما قصته عليها أمها، ولم تتركه حتى أقسم لها أنه الآن يخرج من المحكمة قاصدًا السفر إلى البلد، وأن أول مكان يضع قدمه فيه بعد نزوله سيكون مركز الشرطة ليستطلع الأمر.

طوال رحلته، شغله التفكير فيما حكته له زوجته عن المشكلة التي دارت بين حماه وبين عمدة القرية، وهو في المرات القليلة التي نزل فيها البلد سمع عن فجور العمدة وبغيه الأساطير، استرسل في تفكيره حتى أوصلته قدماه إلى مدخل مركز شرطة القرية، أمسك بذراع أحد العساكر يسأله عن مكتب المأمور، ثم توجه إلى السلالم ليصعدها، قبل أن يطالعه باب غرفة

المأمور المغلق وقد وقف أحد العساكر أمامه منتبهًا، سأله أن يُعلم المأمور بطلب مقابلته، وأعطاه بطاقته الشخصية المثبت فيها عمله، غاب العسكري داخل الحجرة للحظات، ثم خرج ليعطيه البطاقة، ويسمح له بالدخول.

في الداخل وسط الدخان جلس المأمور ممسكًا بسيجارته، وقد مد قدميه على مقعد مجاور.

ـ "اتفضل يا أستاذ"

مد (طُلبة) ذراعه، فصافحه المأمور في تراخي.

ـ "أنا جاي علشان (سالم الحسنين)"

ـ "عارف.. مش إنت جوز بنته؟"

أومأ (طُلبة) برأسه إيجابًا.

ـ "خير يا (محمود) بيه؟"

ـ "حماك الراجل الكبارة اللي البلد كلها بتحترمه وتكبر بيه.. مسكنا واد من اللي بيوزعوا حشيش في البلد، وقال في محضر رسمي إن (سالم) هو اللي بيقطع، ويوزع للبلد، وللبلاد اللي حواليها"

ابتسم (طُلبة) في سخرية، فاستطرد المأمور مشيراَ إليه:

ـ "إحنا برضه مصدقناش زيك كده.. وقولنا نفتش البيت علشان نتمم المحضر بس.. لقينا طربة حشيش مش متقطعة مطلعينها من البيت تحت نظر حماك وابنه"

ـ "سعادتك مش غريبة شوية ميحصلش كل ده إلا بعد خناقته مع العمدة امبارح قدام أهل البلد!؟"

ـ "إحنا شغلنا يقف لحد هنا.. عملنا المحضر، وهيتعرض على النيابة.. موضوع غريبة ده شغلتهم هما مش إحنا.. وبعدين إنت بتلمح لإيه؟"

ـ "أنا مش بلمّح.. أنا قاصد اللي بقوله لسعادتك"

مال المأمور ناحيته وهو يقول:
ـ "ما تيجي دوغري.. إنت شاكك إن العمدة اللي موضب الحكاية كلها؟"
ـ "متأكد مش شاكك"
ـ "وإن أنا بساعده؟"
التزم (طُلبة) الصمت، وهو ينظر إليه.
ـ "طيب علشان أثبتلك العكس.. وإن أنا في صفكم مش في صف حد تاني.. أنا هساعد باللي أقدر عليه.. هدخلك الحجز تطمن على حماك، وتتأكد إن مفيش حد مسه بسوء.. غير كده مفيش في إيدي حاجة تانية أقدر أعملها.."
ضيق عينيه، وخرج صوته حاملًا أقصى مظاهر الحزم:
ـ "القانون اللي أنا بمثله مبيفرقش بين غني وفقير يا أستاذ.. ومبيشوفش قدامه غير برئ ومُدان بس"
ضغط على الزر الموضوع أمامه على المكتب، وانتظر حتى دلف العسكري إلى الحجرة، فأمره أن يصطحب (طُلبة) إلى غرفة الحجز ليرى (سالم)، وأن يمكث معه ما يشاء ليطمئن عليه، وأن ينبه على ضابط الحجز بالأسفل أن يطبق أوامره التي أصدرها في الصباح بأن يحذر الملاعين في غرفة الحجز للمرة الثانية ألا يمسوا (سالم) بضيق حتى موعد ترحيله للنيابة.
نزل (طُلبة) الدرج مع العسكري، وسارا حتى وصلا إلى غرفة الحجز، وفتح مزلاجها العملاق، وأشار إلى (طُلبة) بالدخول، وترك الباب مفتوحًا.. خطا (طُلبة) إلى الداخل، ومر ببصره يمسح وجوه الجالسين، فلم يتبين منهم أحدًا، حتى سمع صوتًا خافتًا يئن:
ـ "(طُلبة)!؟"

التفت ليرتد خطوة إلى الوراء بعد أن رأى وجه (سالم) المتورم بشدة، وحالته المزرية، وقد تقطعت ملابسه إلا ما يستره، فاقترب منه في جزع مستفسراً عما جرى له، فأطرق (سالم) برأسه إلى الأرض في ألم، وتمسكت أهدابه بذيل الدمعة في حرص، حتى لا تسقط فتفضح ضعفه.

أمسك (طُلبة) بذراعه هاتفًا في غضب:

ـ "ما تقلقش يا آبا (سالم).. القضية متفبركة، ومفيش إذن نيابة بتفتيش البيت.. أنا هطلع دلوقتي للمأمور، وأشوف إزاي يعملوا فيك كده، حتى لو اضطريت إني أقدم في اللي عمل كده بلاغ"

دار على عقبيه في حدة، وتوجه ناحية الباب، وما إن اقترب منه حتى ارتج منغلقًا في وجهه، وسمع صوت المزلاج على الناحية الأخرى وهو يعود إلى سابق موضعه.

*****

بعد أيام ثلاثة، وفي صباح اليوم الرابع، انفتح باب غرفة الحجز، وطل النور منها قويًا فألهب عيونًا ألفت الظلام وتعودته، منها عيون (طُلبة) الذي أغلقهما في قوة، واعتدل جالسًا بعد أن كان مستلقيًا على فخذ حماه في إنهاك، دخل أحد العساكر ليضع الأساور الحديدية حول معصميهما، وجذبهما في آلية إلى الخارج، اجتاز بهما ساحة المركز، ووضعهما في عربة الترحيلات للنيابة دون أن ينطق بكلمة واحدة.

بعد ساعتين من الانتظار كانا يقفان أمام وكيل النيابة الشاب الذي أحنى رأسه متمعنًا في الأوراق أمامه، وهو يزم شفتيه في ضيق، قبل أن يلقي بالملف كاملًا على الأرض هاتفًا:

ـ "إيه الهبل ده!؟ اللي كاتب المحضر ده عيل في ابتدائي ولا إيه؟"

ثم التفت إلى كاتبه مشيراً إلى الباب:

ـ "اندهلي يا ابني العسكري اللي جاي معاهم من المركز"
نهض الكاتب ملبياً الأمر، غاب للحظات قبل أن يعود مع العسكري الذي أدى التحية لوكيل النيابة، ثم وقف فاردًا ظهره في قلق.
أشار وكيل النيابة إلى الملف على الأرض في غضب:
ـ "مين يا ابني اللي كاتب المحضر ده؟"
ـ "(محمود بيه نجم) يا فندم.."
عقد وكيل النيابة حاجبيه مرددًا:
ـ "(محمود بيه نجم) مأمور المركز؟"
أومأ العسكري برأسه إيجابًا في توتر، فأشار وكيل النيابة إلى الخارج قائلًا:
ـ "طيب استنى برة شوية بعد إذنك"
ما إن خرج العسكري حتى التفت وكيل النيابة إليهما:
ـ "أنا مش عارف إيه اللي بيحصل.. ومش عارف إزاي مأمور المركز يكتب محضر بالسوء ده هو نفسه عارف إنه مليان ثغرات تنسف القضية من أساسها"
تنهد الشاب، ثم أكمل في حيرة:
ـ "المحضر معمول بتاريخ من تلات أيام.. حتى محاولش يعدل التاريخ علشان يفسر تأخير عرضه على النيابة.. المحضر مكتوب فيه إن الحرز كان موجود في بيت واحد منكم، ورغم كده ضم التاني في لايحة الاتهام بدون إبداء أسباب.. حتى التفتيش بدون إذن النيابة.. مكتبش مبرر واحد ليه!؟"
اعتدل على مقعده، وبدل بصره بينهما:
ـ "اللي كاتب المحضر عارف إن مفيش حاجة هتبقى في إيد النيابة غير إنها تخلي سبيلكم.. وعامل المحضر على الأساس ده.. وده اللي أنا هعمله"
التفت إلى كاتبه يمليه، في حين مال (طُلبة) على (سالم) هامسًا:

ـ "السحلة اللي حصلت لنا دي كلها كانت كارت إرهاب من العمدة، ولا ليها غرض تاني يا آبا (سالم)؟"

لم يرد (سالم)، كان مشغولًا بتصارع الأفكار في رأسه، وإن كان متأكدًا من أمر واحد.. (الصالح قنديل) لا يعمد إلى التخويف فقط كوسيلة للانتقام، طالما ناصب أحدهم العداء فلن يهدأ حتى يقصم ظهره وروحه، هذا يعني أن الحرب ما زالت في أولها، وأن دخانها لم ينقشع بعد حتى يبدأ في إحصاء ما خسره أو ما سوف يخسره.

*****

في طريقهما إلى دار (سالم) أدركا أن هناك أمرًا جللًا قد حدث في البلدة الأيام الماضية، كلما مرا على أحدهم وألقيا السلام أشاح بوجهه في حزن، أو تشاغل بعزْق الأرض متظاهراً بعدم الانتباه، ولما وصلا إلى الدار وجدا بابها مفتوحًا، وسمعا صوت بكاء النسوة الواضح من الداخل.

اقتحم (سالم) الباب وهو يلهث، وقد اتسعت عيناه، يتبعه (طُلبة) ليس بحال أفضل منه، وما أن رأته زوجته وابنته الجالستان بالداخل حتى صرختا وهما تلقيان بنفسيهما بين ذراعيه، ألجم لسانه حتى ظن أنه لم يعد موجودًا في جوفه.. وهتف (طُلبة) في قلق:

ـ "أومال (سيد) فين؟"

ازداد نحيب السيدتين، ومن بين دموعها أشارت (شريفة) زوجته إلى الحجرة الجانبية بأصابع مرتعشة.. انسلّ (سالم) من بين أذرعهما، وانقض على باب الحجرة ليفتحه، ويلقي بصره إلى الداخل في وجل.. في بطء شديد أدار (سيد) بصره إلى القادم، فلما وقعت عيناه على أبيه تفجرتا بالدموع، وحاول النهوض من الفراش، فسقط عليه مرة أخرى صارخًا في ألم.. اقترب

(سالم) من الفراش بخطوات مرتعشة، جلس على حافته، وأمسك بكف ابنه يعتصرها.

- "أرضي ضاعت يا آبا! عرضي ضاع يا آبا!"

مسح (سالم) دموع ولده بكفه، وخرجت كلماته قوية:

- "ما تبكيش يا (سيد)!"

ازداد انهمار الدموع من عيني (سيد) لما لامست أصابع أبوه وجنتيه:

- "استفردوا بيا يا آبا، لجل ما أني لوحدي وماليش عزوة.. ضربوني قدام أهل البلد، والكل وقف يتفرج.. زيادة عن عشرين نفر اللي منهم كان بيضرب، واللي كان بيقلع الزرع بإيديه.. رموني برة الأرض بين الحياة والموت، ونبهوا على الناس ما حد يلمسني، ولا يبلغوا الحكيم.. اللي شالني على كتافه أمي وأختي يا آبا! إكمني ماليش عزوة وبطولي في الدنيا.. لا عم ولا أخ يشد حيلي بوقفته جنبي!"

انهار جسده دفعة واحدة، وتمتم وقد بدأ يتسرب وعيه:

- "خدوا أرضي يا آبا! خدوا عرضي يا آبا!"

التفت (سالم) إلى (طُلبة) الذي كان واقفًا عند مدخل الحجرة وقد بدا على وجهه الغضب، نهض من على الفراش في بطء، وخطا خطوتين ناحيته حتى وقف أمامه، نظر داخل عينيه وكأنه يحاول معرفة قراره، ثم دار من حوله، وخرج من الحجرة إلى صحن الدار إلى خارجه في ثلاث خطوات واسعة يتبعه زوج ابنته في تصميم.

اجتازا طرقات البلدة في صمت، لم ينظرا إلى واحد ممن وقفوا ينظرون إليهم في أسى، كانوا ينظرون إلى الأمام بوجوه صلبة متجمدة، حتى وصلا إلى بيت العمدة الشاهق الارتفاع رغم أنه كان يتألف من دورين فقط،

شُيد حوله سور مرتفع، يلتقي طرفاه عند البوابة الحديدية الضخمة، التي يقف عندها اثنين من الخفراء ليلًا وصباحًا.

تقدم (سالم)، وتشبث بالبوابة في قوة، فبادره أحد الخفراء بالسؤال في غلظة:

- "عايز إيه يا (سالم)؟"

- "عايز أقابل العمدة"

- "العمدة (الصالح) عنده ضيوف جوه.. مش فاضي يقابل حد دلوقتي"

صرخ (سالم) وقد انتفخت عروق رقبته:

- "أني هقابله دلوقتي يعني هقابله، حتى لو فيها موتي"

- "لو جاي علشان مظلمة سيبها، وإحنا نوصلهاله"

- "مظلمتي معاه هو نفسه.. من إمتى الظالم ينفع حكم!؟"

هتف (طُلبة) وهو يهز البوابة بقبضتي يديه في عنف:

- "إحنا مش هنمشي من هنا.. حتى لو ضربتوا علينا نار"

في نفاد صبر قال الخفير:

- "خد جوز بتّك وامشي الساعة دي يا (سالم).. ماتولعهاش عليك أكتر ما هي مولعة"

علا صوت (المنيسي) من وراء الخفيرين هاتفًا، وهو يخرج من باب الدار الخشبي:

- "في إيه يا بهيم إنت وهو؟ مين اللي بيزعق ده؟"

مد بصره إلى البوابة الحديدية، ثم توقف مرة واحدة:

- "(سالم)!!"

- "إيوه (سالم) يا (منيسي).. كنت مع اللي ضربوا ولدي ورموه بره أرضه يا (منيسي)؟ يهون عليك الكتف في كتف في أيوتها مشكلة وقسمة اللقمة في طبق واحد"

اعتصر (المنيسي) حزام بندقيته على كتفه، وهمس بعصبية وهو يقترب من البوابة:

- "ما أني قولتلك وحذرتك يا (سالم).. قولتلك ناب العمدة لما بيدبه في جسم اللي يعاديه مش بيخرج غير بالروح.. إنت اللي ركبت راسك ولسة مصمم تمشي في طريقك مغمي عينيك، وماتعرفش إن الخطوة الجاية الأرض اللي تحت رجلك خلا.. خلا يا (سالم).."

- "طيب افتح يا (منيسي) أتكلم مع العمدة.. يمكن الموضوع يتحل ويرجعلي أرضي.."

ثم اقترب أكثر من البوابة قائلًا في ضعف:

- "ساعدني يا أخويا"

أطرق (المنيسي) برأسه مفكرًا في حزن، قبل أن يلتفت إلى أحد الخفيرين قائلًا:

- "افتح البوابة"

تردد الخفير، وتراجع خطوة إلى الوراء، فأزاحه (المنيسي) في خشونة، وحرك مزلاج البوابة ليفتحها، وهو ينظر إلى (سالم) الذي وقف أمامه لدقيقة، ثم اعتصر عضده شاكرًا، وتقدم ناحية باب الدار يتبعه (طُلبة).

بالداخل كان العمدة يجلس بجسده الضخم بين شيخ البلد ورجل آخر يرتدي حُلة أنيقة، كان رأس كل منهم يقترب من الآخر، فلما رأى العمدة (سالم) يدخل من باب الدار المفتوح، اعتدل جسده، وأطل داخل عينيه في ثبات، في حين تكلم شيخ البلد ذو الجسد الممتلئ شحمًا:

ـ "في إيه يا (سالم)؟"

ـ "أرضي يا شيخ البلد.. وحق ابني قبل الأرض.."

أشار شيخ البلد خفية إلى الرجل الجالس يتأمل ملابس (سالم) المهلهلة، وقال معاتبًا:

ـ "ودي أمور نتكلم فيها برضه قدام سعادة البيه!؟"

ـ "مش لما أعرف مين سعادة البيه.. يمكن يجيبلي حقي لما يسمع مظلمتي.."

ـ "ده مستثمر كبير جاي يعمل مشاريع وخدمات للبلد وأهلها.."

ـ "ما أني من أهلها برضك يا شيخ البلد.."

التفت شيخ البلد إلى الرجل مستسمحًا:

ـ "ما تأخذناش يا سعادة البيه.. أصل زناخة العقل في البلد دي داء بيورثوه لعيالهم"

تحول إلى (سالم) بجسده كله قائلًا في غلظة:

ـ "يا (سالم) الخدمة اللي جاي يعملها سعادة البيه لأهل البلد إنه هيبني مصنع كبير على أرض البلد ينقل بلدنا نقلة تانية خالص.. ويوظف فيه عيالكم بدل ما هم قاعدين لا شغلة ولا مشغلة.."

تأمل العمدة مسبحته في يده قائلًا:

ـ "إيوه هيبني على الأرض اللي جار الترعة القبلية يا (سالم).."

ـ "على أرضي يا عمدة!؟"

رفع العمدة سبابته أمام وجهه:

ـ "اللي كانت أرضك.. واتاخدت منك بوضع اليد.. لهو إنت متعرفش إن كل أراضي الزمام اللي تحت إيدي متاخدة بوضع اليد"

ـ "الأرض أرضي يا عمدة.. وارثها عن أبويا عن جدي، وأقدر أجيب الورق اللي يثبت"
هز العمدة كتفيه:
ـ "والله هاته.. وساعتها يبقى في كلام تاني.. إحنا ناس نعرف القانون، ونرفعه سيف على رقابي الكل من كبيرها لصغيرها.. بس لحد ما تجيبه ماتهوبش ناحية الأرض علشان الغفرا اللي قاعدين فيها عندهم أوامر بضرب النار بدون تحذير على أي حد يدخلها من غير إذني"
أزاح (طُلبة) حماه، ووقف مواجهًا العمدة:
ـ "أنا هجيب ورق الملكية يا عمدة.. وساعتها هقلب الدنيا عليك لحد ما الحق يرجع لصحابه.. وأشوفك بعيني وإنت بتتشال من العمودية نهائي عن قريب!"
تأمله العمدة وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة:
ـ "أستاذ (طُلبة) المحامي!! إيه اللي مبهدلك كده!؟ ده أني معرفتكش!"
أمسك (سالم) بذراع (طُلبة)، وجره جراً إلى الخارج، وهو يردد:
ـ "حسبنا الله ونعم الوكيل! حسبنا الله ونعم الوكيل فيك يا عمدة!"
انتظر العمدة حتى خفت الصوت ثم اختفى، قبل أن يلتفت إلى الرجل بجانبه:
ـ "بيهددوني بالعمودية فاكرين ياما هنا ياما هناك.. الناس دي متعرفش إن العمودية تكليف مش تشريف.. إيوه طبعًا.. العمودية مسئولية.. مش كده ولا إيه يا شيخ البلد!؟"
ـ "إيوه أومال إيه.. دي هم بالليل ومشقة بالنهار.. ربنا يقدرك عليها يا عمدة"
ـ "آمين يا خويا!"

قالها والتفت ناحية الباب الذي خرجا منه منذ لحظات، وقد استحالت عيناه غدرًا.

*****

بعد يومين، كان (طُلبة) يفتح باب عربته المتهالكة في سعادة، ويضع بها بعض الأوراق، قبل أن يحشر نفسه داخلها.. على مسافة قريبة منه، وقف أحدهم يتحدث في هاتفه قائلًا:

ـ "أيوه يا حضرة العمدة.. ورق ملكية الأرض دلوقتي مع (طُلبة).. هو راكب عربيته، وشكله نازل البلد.. إنت قولتلي أبلغك بالحاجة قبل ما يعملها.. حاضر يا جناب العمدة.. حاضر.."

على الناحية الأخرى، أغلق العمدة الهاتف، ووضعه على ذقنه مفكرًا، ظل على شروده للحظات، ثم التفت إلى الخفير الذي يقف بجانبه آمرًا:

ـ "اندهلي الريس (شاهين) بسرعة!"

قلب الخفير كفيه في حيرة:

ـ "الريس (شاهين)!؟ وأني هلاقيه فين سعادتك دلوقت!؟"

صرخ العمدة في ثورة:

ـ "دور عليه إن شالله تلبدله في الجبل"

فزع الخفير، وهو يتراجع بظهره ناحية الباب:

ـ "أوامرك يا حضرة العمدة.. حاضر.."

عاد العمدة إلى شروده مرة أخرى، وهو يتمتم:

ـ "طيب يا (سالم).. هنشوف مين فينا اللي نفسه طويل، ومين اللي نفسه هينقطع بدري.. والشاطر اللي يفضل واقف على رجله في الآخر.."

*****

هبط الظلام سريعًا، واختفى القمر في تلك الليلة من السماء دون أن يترك عذرًا، فبقي ضوء النجوم الخافت وحده وكأنما تفتت القمر إلى كل تلك النقط المضيئة، عندما مرت سيارة (طُلبة) على الطريق الترابي في مدخل القرية، وهي تثير الغبار خلفها، دقائق قليلة مرت حتى سمع صوت انفجار إحدى الإطارات، فأمسك مقود السيارة بكلتا يديه في قوة، وضغط مكابح السيارة لتتوقف على جانب الطريق الضيق، ترجل منها ونظر إلى الإطار المثقوب، ثم أدار بصره حوله، فلم يجد من يقدم له يد العون، فتح باب السيارة، والتقط ملف الأوراق منه، وهو يغمغم في ضيق:

ـ "مفيش إستبن، والكاوتش فرقع.. هنضطر نمشي..."

قاطعه صوت فرقعة صغيرة، نظر حوله، فلم يرَ شيئًا، فجأة أحس بحرق يكوي صدره، وضع كفه على صدره في ألم، ثم رفعه أمام وجهه، ليجد يده غارقة في الدماء، اتسعت عيناه، وفتح شفتيه ليتكلم، فلم يخرج صوت، قبل أن يسقط على وجهه وسط التراب دفعة واحدة.

من حقل الذرة على جانب الطريق، ظهر رجل ملثم بكوفية من الصوف يحمل بندقيته التي يهرب من فوهتها الدخان، اقترب من جسد (طُلبة)، مال عليه وجذب الأوراق من بين أصابعه في سرعة، ثم جرى ناحية الحقل، ليختفي داخله مرة أخرى.

*****

وضع (سيد) آخر الكراسي التي كانت منصوبة للعزاء خارج الدار مقلوبًا كما البقية، ودخل إلى الدار فنزع السلكين المغروسين في القابس فانطفأ النور الذي كان يصدح حزينًا بالخارج، ثم أغلق باب الدار بضرفتيه في صمت، وتوجه ناحية الأريكة الخشبية في صدر الدار، خلع نعليه اللذين التصقا بقدمه من كثرة الوقوف، ثم مال بجسده المتعب في بطء على الوسادة

القطنية قبل أن يتأوه في ألم؛ فمازال جسده لم يُشفَ بعد من ضرب الملاعين إياهم.. حانت منه نظرة ناحية الحجرة التي تنام بها أخته.. مسكينة تلك الفتاة التي لم تكمل عامها الثاني والعشرون وقد ترملت، منذ أن وصلها الخبر وقد امتهنت البكاء حتى التشنج، عسى أن تجد بعض التعزية في الإعتناء بهديته الأخيرة لها، والذي ينمو في أحشائها بسكينة.

انتقل تفكيره إلى (مريم)، وكيف منعها أبوها من التردد على بيتهم كما كانت تفعل قبل دوامة الصراع مع العمدة، تقول صاحبتها أنها تحبس نفسها في حجرتها وتبكي لأنها لا تستطيع أن تكون معه في تلك الظروف، من يستطيع أن يؤكد له هذا الكلام، ربما هي الآن ترفع كفيها شكراً لله على أن ارتباطها به مازال في أوله، لو أرادت أن تدعمه في محنته لفعلت، ولأوجدت طريقة لذلك، مد يده بحزم، وخلع الدبلة الفضية التي كانت تزين إصبعه الأوسط، والآن صارت تكوي جلده، طوح بها إلى آخر الدار، ثم عقد ساعديه على صدره، وتهيأ لساعات قليلة من النوم قبل أن يعلو صوت أذان الفجر من المسجد القريب ليوقظه كما تعود، عندما وصلت إلى أنفه رائحة الشياط!!

هب من رقدته، ونظر من فلجات الخشب الذي يغطي الكوة الصغيرة أعلى الحائط، فوجد النار تزحف على البيت في نهم، اندفع مقتحماً الغرفة التي ينعس بها والده صارخًا:

ـ "بيحرقوا البيت يا آبا!!"

قفز (سالم) ناحية الحجرة الأخرى، واختفى بداخلها قبل أن يخرج وهو يضم امرأته وابنته تحت ذراعيه، في حين جرى (سيد) إلى باب الدار يفتحه، عندما وجده مغلقًا من الخارج باحكام.

صرخ (سالم) وقد غزت النيران جدران الدار إلى الداخل:

ـ "الكنبة.. شيل معايا الكنبة.."

تعاونا على حمل الكنبة الثقيلة، واندفعا بها ناحية الباب الضخم، مرتين وثلاث، حتى انهار الباب معلنًا استسلامه، ألقيا بحملهما، وعادا ليحتضنا المرأتين، ويخرجاهما إلى مسافة بعيدة عن البيت نسبيًا، ثم رجعا إلى داخل البيت، حمل كل منهما بطانية صوفية، وانهالا ضربًا على النار التي كانت تزأر في وجهيهما. خارج الدار وقف رجال البلدة يخبطون كفًا بكف، وهم يشاهدون المعركة الدائرة بالداخل بين الرجلين والنار، حتى ضاقت الحلقة المشتعلة حولهما، وأصبحا بالكاد يستطيعان الوقوف بداخلها، ورغم ذلك استمرا في نخزهما اليائس للوحش الناري الغاضب.

دفع (المنيسي) الرجال بالخارج محاولًا المرور وهو يصرخ، ثم قفز إلى داخل البيت، وغاب فيه للحظات اندفع فيها الدخان كثيفًا من باب الدار، قبل أن يظهر وهو يجذب الرجلين قسرًا، وقد تشبثا بالعودة إلى الداخل مرة أخرى، وما إن خرجا حتى علت ألسنة اللهب من داخل الدار معلنة انتصارها النهائي في المعركة.

جلس الرجلان على الأرض أمام الحريق، وقد تلطخ وجهاهما بالسواد، يشاهدان النار تستمتع بالتهام وجبتها وإن كانت هزيلة فهي كل ما يملكانه في هذه الدنيا.

استدار (سالم) ينظر في وجوه الرجال الواقفين، ثم نهض ببطء، وسار بخطى متهالكة، فهب (سيد) ممسكًا بكتفيه:

ـ "رايح فين يا آبا؟"

رد (سالم) بخفوت، وهو ينقل بين قدميه في صعوبة:

ـ "رايح للعمدة أستسمحه وأشوف إيه اللي يرضيه.."

تشبث (سيد) بكتفيه، وهتف في تضرع:

ـ "لا يا آبا.. بلاش!!"
في نفس الخفوت تكلم (سالم)، وهو يسير دو أن ينظر إلى وجه ابنه:
ـ "إنت بطولك.. مفيش حد تخاف عليه.. مفيش حد متعلق في رقبتك ومسئول منك.. والعمدة مش هيسكت.."
بكى (سيد)، وهو يزداد تشبثًا به:
ـ "هيحكم علينا نخرج من البلد زي ما عمل مع اللي قبلنا.."
انفجر أبوه مرة واحدة صارخًا في وجهه:
ـ "نخرج ونسيبها بدل ما نموت فيها! البلد دي مش بلدنا! دي بلد (الصالح قنديل) و(محمود نجم)! أني عرفت دلوقتي ليه اللي بيسافر بيبقى مش طايق يقعد فيها.. البلد دي عايزة اللي يعيش فيها يا إما يقدر يدفع تمن عيشته.. يا يحط بُلغة قديمة في بقه ويسكت.. ويوطي يجيب اللقمة من على الارض ويشكر اللي رماها.. وأني ماحيلتيش حاجة أدفعها!!"
مزق صدر جلبابه صارخًا:
ـ "ماحيلتيش حاجة أدفعها يا (سيد)!! ولو فكرت يبقى حيلتي حاجة مش هيسيبوني في حالي.. مش بلدنا يا (سيد)! دي بلد (الصالح قنديل) و(محمود نجم)! بلد (الصالح قنديل) و(محمود نجم)!"

ظل يردد جملته الأخيرة، وهو يسير بخطى متعثرة ناحية دار العمدة.

*****

وصل (سالم) إلى بوابة دار العمدة صارخًا، وهو يتشبث بها:
ـ "يا حضرة العمدة! يا حضرة العمدة!"
هتف أحد الخفيرين الواقفين وراء البوابة:
ـ "وطي صوتك.. العمدة زمانه نايم.."

صرخ (سالم) بأعلى صوته:

- "يصحى! إصحى يا حضرة العمدة! أني (سالم الحسنين)!"

خرج العمدة من باب الدار عاقدًا حاجبيه، يتبعه أحد الخفراء.

- "في إيه عندك يا غفير إنت وهو!؟"

ارتبك الخفير، وفرك كفيه:

- "ده (سالم الحسنين) يا جناب العمدة"

ردد العمدة في حيرة:

- "سالم!؟"

خطا العمدة ناحية البوابة، وهو يهز عصاه أمامه، فأسرع الخفيرين بفتح البوابة على مصرعيها، عبرها العمدة، ولف ذراعه حول كتف (سالم)، وهو يتأمل وجهه:

- "خير يا (سالم)! إيه اللي عمل فيك كده؟"

مال (سالم) يجذب كف العمدة إلى شفتيه، انتظر العمدة حتى قبّل كفه قبل أن يسحبها هاتفًا:

- "ليه كده يا (سالم)!؟"

بلهجة باكية، وصوت متحشرج تكلم (سالم):

- "أني جاي أتأسفلك يا حضرة العمدة.. أني غلطان وابني الآخر غلطان.. قطع من جتتي لحد ما ترضى.. بس بلاش عيالي يا حضرة العمدة.. كفاية اللي راح.."

أرجع العمدة رأسه إلى الوراء، وتأمل سالم في دهشة:

- "راح إيه وغلطان إيه يا (سالم)؟ أني مش فاهم منك حاجة.. الموضوع اللي كان بينا عدى عليه يامه.. وأني عن نفسي نسيته وخرجته من دماغي نهائي..

تعالى نصلي الفجر في الجامع الكبير، وبعدين تقعد تحكيلي إيه اللي حصلك، وعمل فيك كده.. يمكن الحل يبقى على إيد الفقير إلى الله.. تعالى.."

اصطحبه إلى الجامع في صمت، حتى وصلا إليه، وقد اكتظ بالناس على غير العادة في صلاة الفجر، بدا وأن الرجال قد جُمعوا من بيوتهم جمعًا لغرض ما، وما إن دخلا إلى الجامع معًا حتى تتبعتهم العيون، إلى أن أجلسه العمدة بجواره في الصف الأول، والذي قد أفسح له فور دخوله، نظر العمدة إلى شيخ الجامع الذي هب من جلسته يردد إقامة الصلاة في آلية وعجل، فقام الجمع مستعدًا للصلاة، وما إن انتهت حتى قام شيخ البلد مختطفًا (الميكروفون) من على الحامل الحديدي قائلًا:

ـ "محدش يمشي.. في كلمتين أخونا (سالم الحسنين) عايز يقولهم للعمدة قدام أهل البلد.."

مد يده بـ(الميكروفون) أمام وجه (سالم) الذي تأمله وكأنه يحلم، ثم التفت إلى وجه العمدة الذي كان يحاول أن يظهر متفاجئًا، هز شيخ البلد يده بـ(الميكروفون)، فمد (سالم) أصابع مرتعشة يلتقطه، نظر وراءه إلى رجال البلدة الذين احتشدوا في الجامع، وبصرهم مسلط عليه كأضواء كاشفة تفضحه، تكلم بحلق جاف ولسان متشقق، فخرج الكلام ميّتًا لا حياة فيه:

ـ "أني.."

أشار له شيخ البلد أن ينهض، فوقف بساقين تهتزان:

ـ "أني عايز أتأسف قدامكم لحضرة العمدة (الصالح).. أني غلطت في حقه، وهو طول باله عليه زي ما بيعمل أي أب مع ولاده.."

وضع العمدة كفه على صدره، وهز رأسه في تواضع قائلًا:

ـ "كلكم ولادي.."

هتف شيخ البلد في حماس:

ـ "طبعًا.. ما إنت كبير العيلة.."
أكمل (سالم) حديثه، وجسده ينتفض:
ـ "كمان.. كمان كنت عايز أعتذر لـ(صابر) بيه على اللي حصل من ابني في حقه.."
رفع العمدة صوته في فخر:
ـ "هو سافر مصر بقى لجل ما يشوف مذاكرته.."
نهض شيخ الجامع على ركبتيه، واختطف (الميكروفون) من يد (سالم) هاتفًا فيه:
ـ "اللهم سدد خطاه.."
هدر الصوت في المسجد مجيبًا:
ـ "آآآآآمييين!!"
ـ "اللهم وفقه إلى أعلى الشهادات!"
ـ "آآآآآمييييين!!"
ضم (سالم) ياقتي جلبابه المقطوع على صدره وكأنه يستتر به من عيون الجالسين، وتوجه قاصدًا باب الجامع، والدعاء يهدر من ورائه، في حين انشغل الناس بالنظر إليه وهو يمر بجانبهم، وتردد شفاههم التأمين على الدعاء في آلية..
خرج سالم من باب الجامع عاري القدمين لا يعرف أين يذهب، ظل يسير في طرقات البلد الصامتة لدقائق قبل أن تقوده قدماه إلى حطام البيت، ووجد زوجته وابنته وقد أسندا رأسيهما إلى بعضهما البعض في حسرة، ولم يجد (سيد).

*****

لا أحد يعرف أين ذهب (سيد)، مرت عدة شهور، وأصبحت حالة أبيه كالعدم يسأل كل من يقابله عن (سيد)، ولا أحد يعرف أين ذهب (سيد)، حتى جاء أحد الشباب في يوم ما إلى (سالم)، وأكد له أنه رأى (سيد) في القاهرة.. كان هناك يقضي بعض الطلبات لمحل والده، عندما رأى (سيد) وقد استطالت لحيته حتى غطت صدره، وقصر ثوبه حتى بعد ركبتيه بقليل، وأنه على الرغم من ذلك تعرفه على الفور، وهتف منادياً عليه، فالتفت إليه، ولما عرفه ابتعد مسرعًا وسط الزحام، أغلظ الشاب الأيمان لـ(سالم) أنه متأكد من رؤيته لـ(سيد) كما هو متأكد من مكان السماء بالأعلى والأرض بالأسفل، ولكن في داخل قلب (سالم) جزءًا لا يصدق، فماذا يفعل (سيد) في القاهرة بأي حال!؟ بعدها بأيام وصل خبر وفاة (صابر) ابن العمدة في شقته الخاصة.

** ** **

(٣)

تكلم الرجل ذو الجلباب الواسع في هدوء، وبريق عينيه يزداد جنونًا:

ـ "أخيراَ يا دكتور (يحيى)! أخيراَ أمسيت بين يدي!"

تأمل وجه (يحيى) الحائر للحظات في صمت، قبل أن يسأله:

ـ "هل تعرف لماذا أنت هنا؟"

بحلق جاف، ولسان متشقق سأل (يحيى):

ـ "أنا فين؟"

اعتدل الرجل في مجلسه، وهز كتفيه قائلًا:

ـ "سؤال لا تفيدك إجابته في شيء.. لذا لن أضيع وقتنا الثمين في الإجابة عنه.."

ثم وضع كفه على صدره، وأضاف كمن تذكر شيئًا:

ـ "اعذرني إن كنت أتحدث بلسان الفصحى.. فهي أقرب إلى قلبي وعقلي من عامّيتك.."

رفع (يحيى) وجهًا مجهدًا ناحيته:

ـ "هي أقرب لي أيضًا بحكم دراستي وتدريسي.."

ضم الرجل كفيه في سرور:

ـ "عظيم.. الآن يمكننا الحديث دون قيود.. وأعدك أن حديثنا لن يطول.. أنت هنا لمحاكمتك محاكمة عادلة نخلص في نهايتها إلى حكم يشفي صدور قوم مؤمنين بإذن الله تعالى"

ردد (يحيى) عاقدًا حاجبيه:

ـ "محاكمتي!؟ بأي ذنب!؟"

التفت الرجل إلى الشاب الملثم الواقف أمام الباب، فانطلق يتحدث في آلية:

ـ "الدكتور (يحيى) عسر.. أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين

جامعة الأزهر.. أنت متهم بالإساءة إلى الدين الإسلامي وثوابته وعلى رأسها فريضة الجهاد.. وبالإفساد في الأرض، وموالاة رموز الكفر، والنفاق على أهل التقوى من المؤمنين.. والدعوة إلى تغليب الأحكام الوضعية الكافرة على أحكام الشريعة الإسلامية، وهو ما يخرجك من دائرة الإسلام، ويزج بك في دائرة الكفر بما أنزل الله.. اليوم تتم محاكمتك عدلًا، فلا تظلِم ولا تُظلَم.. فإن ثبتت إدانتك يطبق عليك حد الله"

ابتسم (يحيى) متهالكًا:

ـ "محاكمة عادلة.. ثم تذكر لها نتيجة واحدة وهي إدانتي.. فماذا إن لم تثبت؟"

إرتبك الشاب، ونظر ناحية شيخه الذي قال في هدوء:

ـ "ستثبت.. بل هي ثابتة بالفعل.. فبما تستطيع أن تدفع مثل تلك الحقائق عن نفسك؟"

هز (يحيى) كتفيه قائلًا:

ـ "وبأي سلطة تتم محاكمتي على أيديكم؟"

تكلم الرجل في سرعة قبل أن يتم (يحيى) جملته:

ـ "بسلطة القوة"

ثم انحنى ناحيته، ونظر داخل عينيه هامسًا:

ـ "أم تحسب أن لك وحدك حق إصدار الأحكام على باقي البشر!؟ أنت لم تترك لك حديثًا إلا وألصقت بنا تهمة التطرف افتراء"

اعتدل مرة أخرى في مقعده قائلًا:

ـ "جعلتم كل الناس -خاصة العامة منهم والبسطاء- يفهمون أن التطرف هو التسنن بسنن الرسول.. وأن المتطرف هو من أطلق لحية، أو استعمل سواكًا، أو قصر ثوبًا، أو ستر عورة، أو تيمن في حركته وسيره، أو اتخذت

حجابها سبيلًا، أو منعت الاختلاط، أو هجرت عوائد الغرب وأصحاب الديانات الأخرى.. علمتموهم أن التطرف هو الدعوة إلى تحكيم شريعة الله في شئون هذه الحياة، رغم أنها صريح الكتاب والسنة، ومقتضى الإيمان بالله ورسوله، ومسلك أهل القدوة في الإسلام في جميع العصور.."

اعتدل (يحيى) هو الآخر في جلسته:

ـ "كل ما ذكرته يدور بين الفريضة والسنة والمندوب.. وإنما التطرف هو التسوية بين ذلك كله في الحكم.. أنت حر أن تشدد على نفسك في الالتزام بكل ما أخبرت.. ولكن من التطرف أن تسوي بين الفروض والسنن والمندوبات في إطلاق الحكم الشرعي عليها، وإلزام غيرك بفعلها وإلا أثِم.. كما أن تطرفكم يظهر جليًا في غير ذلك من المواضع كما تعلم"

هز الرجل رأسه نفيًا، وعلت شفتيه ابتسامة ساخرة:

ـ "لا أعلم.. دُلني على غرض قولك.."

ملأ (يحيى) صدره بالهواء قبل أن يتكلم:

ـ "مثل استعمال العنف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. والجرأة على تكفير العصاة أو إخراجهم من دائرة الإيمان بالكلية.. أما الأول فالمتواتر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو فرض كفاية، ولكن من هو الذي يستطيع القيام بمثل تلك المهمة؟ أجمع العلماء على أنه يشترط فيه أن يكون عالمًا بما يأمر وينهي.. وأن يكون قصده وجه الله وإعزاز دينه.. وأن يكون أمره ونهيه باللين والتودد والحكمة والموعظة الحسنة.. وأن يكون صبورًا حليمًا حمولًا ومتواضعًا.. وأن ليس لآمر ولا ناه تجسس ولا بحث ولا اقتحام دار.. وليس له أن يأمر أو ينهى عن منكر إذا غلب على ظنه أن أمره ونهيه يؤدي إلى منكر أكبر من إراقة دم أو تخريب ديار أو ظلم يقع ببريء.. وأن لا يأمر وينهى في دقائق الأمور إلا العلماء.. أما الأمر الثاني..."

قاطعه الرجل بإشارة من كفه:

ـ "كلامك منافٍ لصحيح الدين تمامًا.. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض عين على كل مسلم كما أقر الشيخ (عبد العزيز بن باز)، وليس فرض كفاية كما تزعم.. حتى أن العلماء عدّوه سادس أركان الإسلام.. فلا يصح إسلام المرء إن رأى منكرًا ولم يغيره ولو حتى بقلبه وهذا للمسلم ضعيف الإيمان.. ولا يصح اشتراط كون المنكر مأذونًا فيه من جهة الإمام أو الوالي كما قال (ابن قدامة).. وقد أقر أيضًا أن من رأى منكرًا وسكت عنه فقد عصى.."

أومأ (يحيى) برأسه قائلًا:

ـ "الإمام (ابن قدامة) فقيه زاهد كان كتفًا بكتف مع (صلاح الدين الأيوبي) في تحرير فلسطين، وفي مقدمة الجيوش الإسلامية.. لكنه إمام للفقه الحنبلي، وهذا لا يقلل من شأن العالم المجاهد الورع بأي حال من الأحوال.. ولكنه يعني أنه هناك مذاهب أخرى لم ترَ مثل ذلك الرأي.. مثل الشيخ (محمد بن صالح العثيمين) الذي أقر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية.. إذا قام به من يكفي سقط عن الناس.. وأن من شروطه أن لا يترتب عليه مفسدة أعظم من السكوت فإن ترتب عليها ذلك لا يجوز له أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر"

قال الرجل في هدوء:

ـ "عظيم.. إذن إذا كنت سائرًا في طريق، ووجدت أحدهم يتعرض لفتاة بالأذى فلن تقف له ناصحًا؟"

هز (يحيى) رأسه نفيًا:

ـ "ما تحاول ضرب المثال له هو فرض إغاثة الملهوف، وليس الأمر بالمعروف.. وهي واجبة على كل قادر، وصدقة من العبد لها أجرها وبرها..

قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: ـ "على كل مسلم صدقة، قالوا: يا نبي الله فمن لم يجد؟ قال: يعمل بيده ويتصدق، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: يعين ذا الحاجة الملهوف".. كما قال -صلى الله عليه وسلم- في أجر من يقوم بهذا الواجب العظيم: "من مشى في حاجة أخيه كان خيراَ له من اعتكاف عشر سنين"..

كل هذه الأمور قشور بالمقارنة بالخطر الحقيقي في تفكيركم، وهو التكفير سواء لعامة المسلمين أو للحكام والأمراء.. هذا الأمر هو ما يستحق الحديث.."

** ** **

(٤)

مشى على أطراف أصابعه في حذر مستترًا بالظلام الذي يملأ المكان، تفادى بعض الحديد المكوم فوق بعضه في حرص، وتلمس طريقه ناحية الدَرج الذي يوصله إلى الغرفة الزجاجية العالية، حيث يحتفظ عمه بالخزينة الحديدية التي يكدس فيها كل يوم نقوده ونقود أمه المريضة، تذكر كيف أن هذا المخزن لقطع غيار السيارات أسسه أبوه مع عمه منذ سنوات، ولأن الرجل كان يثق في أخيه، فلم يكتب أي عقود بينهما، حتى مات مدفونًا تحت أكوام الحديد الخردة ليلًا عندما لم يكن معه في المخزن غير شريكه الوحيد.. أخوه مات بعد أن حصل هو على شهادة الهندسة في الميكانيكا، والتي أصر والده على اتمامه لها حتى يساعده في العمل ويطوره، لكن بعد موته انقلبت الأمور رأسًا على عقب، ورفض العم أي فرصة لتسوية أموال الشراكة، مؤكدًا للجميع أن أخاه سحب مبالغ مالية كبيرة قبل موته تغطي حسابه وتزيد من أجل أن يصرفها على مرض زوجته الذي غرس أنيابه في جسدها.

الليلة بعد أن ضاق عليه الحال حتى بلغ مداه، وبعد توسلاته الشديدة لعمه التي لم تجد أذن تسمع أو قلب ينصت، وأمام مرض أمه الشديد الذي لم يُجدِ معه انتظار قرر أن يحصل على حقه بالقوة وحدها.. وصل إلى أولى درجات السلم، عندما أضاءت الأنوار في كافة أرجاء المخزن مرة واحدة.. أغمض عينيه في قوة، ثم فتحهما على صوت عمه الواقف أعلى الدرج أمام الغرفة التي كان يقصدها من البداية:

- "كنت متأكد إنك جاي يا (دسوقي).. لكن إمتى؟"

من وراء أكوام الحديد خرج ثلاثة رجال أشداء البنية أحاطوا به في سرعة، قيد اثنان منهم ذراعيه وراءه، ووقف الآخر أمامه، التفت إلى العم فأشار

له بأصابعه، فدار الرجل بجسده كله موجهًا لكمة شقت الهواء حتى وصلت إلى معدة (دسوقي) الذي انحنى متأوهًا في ألم، وهو يسمع عمه يقول:

ـ "جاي تسرقني يا (دسوقي)!؟ تسرق عمك!؟ ده أنا خيري عليك وعلى الست والدتك من أيام ما كنت شغال مع أبوك -الله يرحمه-"

أجبره الرجل على الوقوف وهو يجذبه من ياقة قميصه، ثم وجه لكمة أقوى من سابقتها إلى فكه، فتطايرت الدماء منه تغطي قميصه، وعمه يكمل حديثه:

ـ "من أيام ما كنت أزارجي على رصيف المينا وأني بشيلك على كتفي، وحاطك إنت وأمك في رموش عينيا.. جاي تسرقني دلوقتي!؟"

رفع الرجل فخذه فضرب أسفل معدة (دسوقي) بقوة جعلت الهواء يخرج من فمه مندفعًا.

ـ "صحيح يا ولاد.. الدنيا مابقاش ليها أمان.. واللي تحسبه (موسى) يطلع كلب اسمه (دسوقي)"

اللكمة التالية كانت في أنفه، فأحس بالدماء الساخنة تغطي فمه، ودارت رأسه فوق عنقه، قبل أن يسقط في بئر سوداء عميقة.

*****

عندما استرد وعيه، وجد نفسه ملقى على الأرض في الحارة الضيقة المظلمة بجوار المخزن، نهض مترنحًا يستند إلى الجدران القريبة، لم يعرف كيف استطاع الوصول إلى بيته، صعد الدرج مستندًا على يديه، وألقى جسده على الباب، فسمع بسملة أمه من الداخل، قبل أن تفتح الباب، ويطالعها وجهه، همت بالصراخ، فوضع كفه على فمها، وهو يدفع نفسه إلى داخل البيت، استند على المقاعد أمامه حتى وصل إلى غرفته، سحب حقيبته من فوق

خزانة الملابس، وحشر فيها بعض ملابسه في غير ترتيب، ثم حملها على كتفه بصعوبة، وخرج إلى حيث كانت أمه تضع كفها على فمها في جزع، وما إن رأته حتى تشبثت بطرف الحقيبة، وقد سدت طريق الباب بجسدها:

- "مش هتمشي يا (دسوقي)"

ترنح وهو يجذب الحقيبة من يدها:

- "قولتلك لازم نسيب بورسعيد.. مكلم أصحاب الشغل في بورسعيد كلها ميشغلونيش، وكلمته بتمشي على الكل"

- "هتروح فين؟"

- "هسافر القاهرة أدور على شغل.. ولما أظبط أموري هرجع أخدك"

- "ماتمشيش وتسيبني يا (دسوقي)"

ترك الحقيبة من يده، فتناثرت ثيابه على الأرض، وهو يصرخ:

- "حرام عليكم بقى.. إنتِ وهو بتموتوني بالبطيء.. إنتوا بتموتوني بالبطيء"

دفعها من أمام الباب، فسقطت على الأرض، مدت يدها تتشبث بقدمه، فتجاوزها خارجًا:

- "(دسوقي)! ماتسيبنيش يا (دسوقي)!"

نزل الدرج، وصوتها يخفت في أذنه تدريجيًا، وضع قدمه في الشارع وهو لا يعلم أين يذهب، ربما خطوته الأولى هي أن يغادر بورسعيد الآن، بعد ذلك كل شيء يمكن أن يكون أهون.

*****

بعدها بأيام قليلة، كان (دسوقي) عائدًا من رحلته المستمرة للبحث عن عمل، بعد أن وجد سكنًا مع أحد أصدقائه من الدراسة، والذي كان يسكن بدوره في غرفة متواضعة فوق سطوح أحد البنايات، اتفقا على أن يستضيف

(دسوقي) حتى يجد عملًا مناسبًا لأن يستأجر مكانًا يصلح لإقامة أمه معه، حتى الآن لم يجد عملًا مناسبًا، ولا حتى غير مناسب، كان غارقًا في مشاكله، ومحاولة حلها، عندما شعر بيد تدفعه في صدره إلى الحائط، نظر إلى مهاجمه، فوجده شابًا يكبره بأعوام قليلة، ولكن مظهره لا يوحي بخير، ذو وجه طويل، وذقن نصف نامية، ومكان خال في فمه لسنتيه المنزوعتين، وبعض الجروح التي تغزو وجهه في وضوح.

- "اقف هنا ياض.. هي الحارة معدش ليها كبير ولا إيه!!؟ أغيب يومين أرجع ألاقي الحارة سبهللة.. اللي عايز يخرج يخرج، واللي بيدخل بمزاجه.. الحارة إتقل نظامها كده ليه؟"

كان يتكلم، وجسده يهتز جيئة وذهابًا مع كل كلمة، ما شجع (دسوقي) على أن يخرج صوته غليظًا:

- "إيه يا عم في إيه!؟ إنت مالك ومالي مبدئيًا!؟"

اتسعت عينا الشاب، ورفع ذراعه فوضح السلاح الحاد الذي يحمله، وردد كالمجنون:

- "مبدئيًا!!؟ إنت بتقولي أنا مبدئيًا!!؟ (الزلعي) بقى يتقاله مبدئيًا يا حارة!!"

التف الناس حول صراخهما، وحاول بعض الرجال تهدئة الشاب بكافة عبارات الأسف، بينما كان هو يردد في ثورة:

- "ده بيقولي مبدئيًا يا عم (أبو أشرف)!! بيقولي مبدئيًا!"

شق زميل (دسوقي) الجموع الواقفة بسرعة، وهو يرتدي فانلته الداخلية، وجذب صاحبه من بين ذراعي (الزلعي) الذي كان منشغلًا بشرح مضار كلمة مبدئيًا للرجال الواقفين عندما تقال لرجل مثله.

صرخ زميله في وجهه:

ـ "الله يخربيتك.. مالقيتش غير (الزلعي)، وتتخانق معاه.."

ثم التفت إلى (الزلعي) المنهمك في حديث جانبي:

ـ "مساء اللطافة يا كبير"

رد (الزلعي) دون أن يلتفت:

ـ "مساء الخفافة يا حبيب قلبي.."

سأله (دسوقي) في ارتباك:

ـ "مين (الزلعي) ده؟"

ـ "ده بلطجي المنطقة والمسئول عنها.. تقدر تقول الفتوة بتاعها.. مساء الظرافة يا كبير.."

ـ "مساء القيافة عليك يا حبيب قلبي.."

ـ "هو لسة في فتوات!؟"

ـ "أهو ده اللي فاضل منهم.. مساء الكنافة يا كبير.."

التفت إليه (الزلعي) هذه المرة منتبهًا:

ـ "مساء الـ... مساء التفافة عليك يا حيوان! الواد ده تبعك!؟"

ـ "آه.. لأ.. يعني.."

تطوع أحد الرجال الواقفين قائلًا:

ـ "خلاص بقى يا ريس (زلعي).. الواد جاي الحتة جديد، ومكانش يعرفك.. نفض بقى الليلة دي، وكل حي يروح لحاله.. واد يا (فانتا)!"

نادى صبي القهوة، في حين بدأ الناس في التفرق بالفعل.

ـ "شاي الريس (زلعي) عندي ياله.."

أسرع (دسوقي) وزميله مبتعدان في خفة دون أن ينظرا إلى الوراء، في حين مشى (الزلعي) منتفخ الأوداج، حتى وصل إلى أحد كراسي القهوة المتهالكة،

فجذبه حتى نهاية الرصيف، ثم جلس مرتخي الأطراف، وهو يرفع عقيرته بالنداء:

ـ "وله يا (فانتا)"

جرى صبي القهوة حتى وقف بجانبه، وأمال جسده عليه هاتفًا:

ـ "أؤمر يا معلم (زلعي)!"

قرب رأسه منه هامسًا، وهو يدير يده في استفهام:

ـ "هو يعني إيه مبدئيًا؟"

*****

بعد ظهر اليوم التالي، وقف (دسوقي) تحت إحدى الأشجار المتناثرة على طول الطريق، أنزل الجريدة من فوق رأسه، وأخرج زفيرًا ساخنًا من فمه، لم تكن الجريدة تشفع بأي حال أمام أشعة الشمس الحارقة التي جعلت جسده ينضح بالماء كقربة مثقبة، أخذ نفسًا عميقًا، وأخرج هاتفه من جيبه، عبث به قليلًا قبل أن يرفعه إلى أذنه وينتظر، سمع صوت أمه على الجانب الأخر هزيلًا، فابتسم في مرارة قائلًا:

ـ "وحشتيني.."

مرت دقيقة التزم كلاهما فيها الصمت، قبل أن تنهي أمه الترقب والمكالمة بضغطة.

تجمعت الدموع في مقلتيه، وهو يضع الهاتف أمام عينيه مرة أخرى، ثم ينصت إلى سماعته.

ـ "أيوة يا عم (حنا).. أنا (دسوقي).. أنا كويس.. أنا بتصل عليك علشان تطمني على أمي.. تعبانة إزاي يا عم (حنا)؟ أنا مشيت علشان ألاقي شغل أقدر أصرف منه على علاجها بعد ما عمي سد الطرق كلها في وشي في بورسعيد.. ما إنت عارف القصة من أولها يا عم (حنا).. مش هقدر أرجع

دلوقتي لحد ما ألاقي شغل.. هانت يا عم (حنا).. هانت.. بس لحد ما أظبط أموري في الشغل لو حصل لأمي أي حاجة اتصل بيا بلغني على طول يا عم (حنا).. ماشي يا عم (حنا).. هخلي بالي من نفسي حاضر.. مع السلامة.."

رفع ذراعه بالجريدة مرة أخرى إلى رأسه، تلفت يمينًا ويسارًا قبل أن يعبر الطريق مستمراً في بحثه الدؤوب عن عمل يكفل له بداية حياة جديدة.. حتى حلول الظلام، كان جسده قد خذله، وأحس أنه لن يستطيع العودة إلى مسكنه إلا بالكاد، فاتخذ قراره بالعودة والراحة لساعة، قبل أن يواصل سعيه مرة أخرى.. كان قد اقترب من مدخل المنزل، عندما أمسك أحدهم بكتفه، التفت في سرعة، وانتفض جسده عندما وجد من توقعه.. (الزلعي).. لكنه هذه المرة كان متزنا في وقفته، وأقرب في طريقة كلامه إلى باقي البشر:

ـ "إوعى تكون لسة واخد على خاطرك من اللي حصل امبارح.. أصل أنا لما بشرب مابشوفش قدامي"

رد (دسوقي) بصوت مبحوح:

ـ "لا حصل خير.."

ـ "إحنا خلاص بقينا ولاد منطقة واحدة.. واللي يضايقك يضايقني.. هو الواحد لو يبطل عادة الشرب دي هيفوق.."

ـ "ماخلاص يا عم.. كل شوية شرب شرب.. عرفنا إنك بتشرب.. هتكون بتشرب إيه يعني؟"

أشار (الزلعي) إلى القهوة قائلًا:

ـ "الينسون اللي هنا بيبهدلني"

ثم جذبه من ذراعه ناحية القهوة في إصرار:

- "تعالى اقعد معايا شوية علشان أتاكد إنك مش واخد على خاطرك.."
تشبث (دسوقي) بمكانه هاتفًا:
- "لا معلش.. أصل أنا جاي تعبان وعايز أنام"
جره (الزلعي) جراً، وهو يقول:
- "يا جدع مالك!؟ إحنا هنقعد شوية مع بعض.. جايز أطلع منك بمصلحة تطلع مني بنصيحة.. هي بتمشي كده.. يا (فانتا)!"
حضر الصبي قصير القامة جريًا:
- "أؤمر يا معلم!"
- "شوف الأستاذ يشرب إيه الأول"
التفت (فانتا) إليه ضاحكًا:
- "أؤمر يا أستاذ!"
- "أي حاجة غير الينسون!"
- "وأنا هاتلي ينسون"
مال عليه (دسوقي) في قلق:
- "مبلاش الينسون.. ابقى اطلبه بعد أنا ما أمشي"
قهقه (الزلعي) بصخب، وخبط على كتف (دسوقي) بكفه:
- "يا جدع ماتقلقش.. أنا كنت بهزر معاك.. قولي بقى إنت معاك إيه؟"
أخرج (دسوقي) الهاتف من جيبه في قلق، ووضعه على الطاولة أمامه:
- "مش معايا غير الموبايل"
- "لأ لأ.. مش قصدي معاك إيه في جيوبك.. دي هنعرفها بعدين.. أنا قصدي معاك شهادة إيه!؟"
- "أنا مخلص هندسة.."
هتف (الزلعي) وكأنه قد وجد ضالته:

ـ "حلو قوي.. أنا ساكن في عشة بالخوص فوق السطوح.. هاتصرفلك في شوية كسر طوب، وإنت تبنيلي أوضة مكان العشة"

ـ "على فكرة دي شغلانة بنّا مش مهندس.. وبعدين أنا هندسة ميكانيكا.."

ـ "إزاي يعني؟"

أجابه (دسوقي)، وهو يحاول الشرح بيديه:

ـ "ميكانيكا.. يعني مكن وآلات"

ـ "مكن!؟ فسب يعني.. بتصلح فسب.."

ـ "فسب؟"

ـ "آه فسب.. اللي هي البطة الصيني.."

ـ "أيوه بصلح فسب.."

ـ "طيب هفكر أحتاجك في إيه، وأبقى أقولك.. إحكيلي بقى شوية عن مشاكلك وإيه اللي جابك تسكن هنا.. لهجتك بتقول إنك بورسعيدي.. صح؟"

تنهد (دسوقي) وفكر، لِمَ لا يحكي له عما فعله عمه به، فيزيح قليلًا من الثقل عن كاهله!؟ خاصة أنه مل الحديث مع زميل سكنه الذي يصغي مرة ويسد أذنيه مرات، هكذا ولنصف ساعة، ظل يحكي عما حدث له بعد وفاة أبيه، ومرض أمه الذي أكل ما تبقى من الأخضر الذي تركه والده، وضمه إلى اليابس بسرعة.

بعد أن أنهى حديثه، تنهد (الزلعي) متعجبًا:

ـ "وعمك الضلالي ده إزاي ياكل حقك!؟ وهيعمل إيه بالفلوس دي كلها وإنت بتقول إنه مش مخلف!؟"

خبط كفيه ببعضهما، وأردف ببطء:

- "صحيح يا جدعان.. قال يا وارث مين يورثك قال ملقتش حد يلمني.."
- "يا عم إنت بتقول أي كلام وخلاص!؟ ما أنا قلتلك ما تشربش الينسون إلا بعد ما أمشي!"
ردد (الزلعي) بحروف متثاقلة، وهو يسند رأسه إلى كفه:
- "أنا معاك.. بالأمارة آخر حاجة عمك قالها وهما بيطحنوك اللي تحسبه (موسى) يطلع سمك (موسى)، أو حاجة زي كده.."
- "هو الينسون.. (فانتا)!"
قالها وهو ينهض، ويدس هاتفه في جيبه.
- "الحساب عند المعلم لما يصحى.."
ثم ابتعد في سرعة، وهو يحمد الله أن أول اختبار له مع (الزلعي) خرج منه سليم البدن والجيب.

*****

قبل منتصف الليل بقليل، كان يسير على غير هدى في طريق حفته المنازل الفخمة المنظر في تلك المنطقة الراقية، قادته إليه قدماه، بينما انشغل عقله بالتفكير في مستقبل تشابكت دروبه ومسالكه، فبدا معقدًا كمتاهة (ليس لها حل).
قطع تفكيره صوت رنين هاتفه، رد بسرعة ربما تكون إحدى الشركات التي أمطرها بقصاصات ورق تحوي رقم الهاتف في لزوجة، سمع صوت جاره في بورسعيد على الناحية الأخرى، فأوجس في نفسه خيفة، وزاد تأكيدها ما نطق به الرجل في توتر:
- "أمك تعبت قوي يا (دسوقي).. واضطرينا ننقلها المستشفى، وحجزوها هناك.. اتضح إنها من يوم ما سافرتْ ماعملتش ولا جلسة غسيل.. الدكاترة بيقولوا حالتها صعبة قوي.. إنت سامعني!؟ ألو! ألو!"

خفض الهاتف من على أذنه في بطء، وقد سقطت الدموع على وجنتيه في صمت، دار حول نفسه عدة مرات، لابد من وجود حل، لن يقف مكتوف الأيدي قليل الحيلة والرسائل ترده كل يوم عن مدى تدهور حالة أمه الصحية والنفسية أيضًا بعد غيابه، إذن يسافر عائدًا إلى بورسعيد، ويتبرع لأمه بكليته كما كان يفكر دائمًا، ولكن من أين له بالمال اللازم لإجراء العملية، دار حول نفسه بسرعة أكبر، لابد من وجود حل ما، البيوت تدور حوله بسرعة أكبر، البيوت.. البيوت الشاهقة العلو، جرى في الطريق الواسع وهو يلهث من الانفعال، حتى توقف مرة واحدة وهو ينظر إلى البيت الذي أمامه، قبل أن يعدو مرة أخرى عائدًا إلى الحارة التي يسكن فيها، إلى القهوة التي تركها منذ ساعات، إلى الطاولة التي كان يجلس عليها، ألقى نفسه على (الزلعي) عندما رآه يجلس كما تركه.

صاح (الزلعي) وهو يعتصر ياقة قميصه:

ـ "بقى (الزلعي) اللي بيعمل براشوت على الناس كلها.. تعمل عليه إنت براشوت وتطير!؟ تدبسني في الحساب وتخلع!؟"

تكلم من بين لهاثه:

ـ "عايزك في مصلحة.."

*****

شرح له (دسوقي) ما ينتويه، فالتمعت عينا (الزلعي)، وفرك كفيه في جزل، جذب (دسوقي) من ذراعه، ليجلس بجواره قائلًا:

ـ "اقعد خد نفسك.."

ـ "لازم نتحرك دلوقتي.. البيت مضلم، ومفيش محلات هناك.. قبل ما الشمس تبتدي تطلع.."

أشار (الزلعي) إلى صدره الذي يعلو ويهبط في انفعال:

ـ "بحالتك دي.. أول ما نقرب من البيت هتصرخ، وتلم علينا الدنيا.. أنا عارف إزاي أهديك.."

نادى على صبي القهوة، وهمس في أذنه ببعض كلمات، فأومأ الفتى برأسه متفهمًا، التفت (الزلعي) إلى جليسه مرة أخرى مضيقًا عينيه:

ـ "إنما قولي.. منين مخلص هندسة، ومنين محترف السرقة؟؟"

عقد (دسوقي) حاجبيه، وهو يفرك ذراعه في توتر:

ـ "أنا مش محترف سرقة.. أنا لما دخلت المخزن كنت داخل أجيب حقي اللي كله عليا عمي، ودلوقتي مفيش قدامي حل علشان أنقذ حياة أمي غير اللي هعمله ده"

ربت (الزلعي) على كفه مبتسمًا:

ـ "طيب بس إهدى.. إنت فاكر إن اللي بيسرق بيبقى مزاج عنده.. ماهو بيسرق علشان أم بتموت من المرض أو عيل بيموت من الجوع.. وبرضه اسمها سرقة.. الناس اللي بتسرق علشان تزود فلوسها مش هتلاقيهم على القهوة.. دول تلاقيهم في النوادي وقدام البسيم.. ودي ماتبقاش اسمها سرقة.. بيبقى اسمه بيزنس.. صدقني أنا اشتغلت مع دول ومع دول، وعارف أنا بقولك إيه"

نهض (دسوقي) واقفًا في غضب:

ـ "خلاص انسى اللي قولتهولك"

أمسك (الزلعي) ذراعه، وجذبه إلى الكرسي مرة أخرى:

ـ "يا جدع اقعد بقى بدل ما أديك في وشك.. الواحد بيتفك معاك بكلمتين.. عرفنا إنك (روبن هول)، وبتسرق علشان ترجع للفقرا حقهم.."

ابتسم (دسوقي) على الرغم منه، وتأمل (الزلعي) قائلًا:

ـ "(روبن) إيه؟ تعرفه منين ده؟"

شملت ابتسامة (الزلعي) وجهه كله، وهو يقول في فخر:
ـ "شوفت الفيلم بتاعه في التلفزيون.. بس مفهمتش منه غير الكلمتين دول.."
تقدم (فانتا) منهما حاملًا زوجًا من الأرجيلة، وضع كل واحدة أمام صاحبها، فالتفت (دسوقي) ناحية (الزلعي) قائلًا:
ـ "لأ أنا مبشربش.."
تناول (الزلعي) مبسم خاصته قائلًا:
ـ "دي اللي هتفكلك تشنيجة جسمك علشان المشوار.."
مر أمامهما رجل ضخم الجثة، توقف أمامهما للحظة، ثم انحني على النارجيلة خاصة (دسوقي) يشم رائحتها، قبل أن يعتدل صائحًا:
ـ "الشيشة دي مغمسة يا (زلعي)!"
دفعه (الزلعي) في صدره مبعدًا:
ـ "يللا يا جدع شوف إنت رايح فين.. إيه الفضيحة دي!؟"
مال عليه (دسوقي) هامسًا:
ـ "يعني إيه مغمسة؟"
مال (الزلعي) هو الآخر، وكأنه يسر له سرًا:
ـ "الينسون هنا فرقع دماغ الناس.. ماتحطش في بالك.. نَفِس إنت بس.."
بعد دقائق، كانت عينا (دسوقي) ترقصان في محجريهما بجنون، وأحس بثقل رأسه على كتفيه، وهي تميل على الواحد تلو الآخر.. وقفت أمامهما شابة ترتدي عباءة سوداء تكلمت في غضب جارف:
ـ "إنت ماجيتش تكلم أبويا زي ما اتفقنا ليه يا (زلعي)؟"
نظر إليها بعين نصف مفتوحة قائلًا:
ـ "يا بت ما أنا روحت كلمته.. مش إنتِ أبوكِ طويل وشعره طويل؟؟"

هزت جسدها في غضب:
ـ "أنا أبويا قصير وأقرع يا (زلعي)!"
ـ "مش إنتِ أبوكِ رفيع زي الخِلة كده؟"
ـ "أنا أبويا بكرش يا (زلعي)!"
طوح (الزلعي) بذراعيه:
ـ "طب أنا إيه اللي يخليني أتجوز واحدة أبوها قصير وأقرع وبكرش.. وأخلف عيل شبه البطريق!؟"
ثم التفت إلى (دسوقي) قائلًا:
ـ "مين البت دي؟"
هز (دسوقي) كتفيه، ومط شفته السفلى، فأشارت إليه الفتاة قائلة:
ـ "مين ده كمان يا (زلعي)؟"
وضع (دسوقي) كفه على صدره قائلًا:
ـ "أنا (دسوقي).. (دسوقي محفوظ الصناديلي).."
ابتسمت الفتاة في سخرية:
ـ "اسمك (دسوقي)؟"
ـ "آه.. دسوقي إنتِ ولا أسوق أنا!؟"
انفجر ضاحكًا هو و(الزلعي)، فجمعت الفتاة عباءتها وما تبقى من كرامتها لتغادر، واقترب منهم (فانتا) صبي القهوة ليبدل الحجر المنطفئ بآخر أكثر اشتعالًا، فأشار إليه (الزلعي) قائلًا:
ـ "عارف الواد (فانتا) ده لما بيزعل مابيعيطش.. بيفور.."
علت ضحكاتهما، و(دسوقي) يقول:
ـ "بس مش عارف ماله من ناحيتي.. حاسه ساقع كده.."
ـ "أصله ما بينامش على سرير.. ده بيبات في التلاجة"

نظر إليهما الصبي بلوم، ثم انسحب مغمغمًا:

ـ "مقبولة منك يا معلم (زلعي)"

تجاهله (الزلعي) وهو ينقر على معصمه الأيسر هامسًا:

ـ "يللا إحنا بقى علشان نلحق"

استند (دسوقي) على ذراعه، ونهض بصعوبة عالمًا أن الساعات القادمة ستمر صعبة وبطيئة، لكن تفكيره في مرض أمه أضاء في عقله ضوءًا مسح من بعده كل أثر للخوف أو التردد.

*****

تسللا في هدوء إلى البيت القابع في الظلام، اعتلى (الزلعي) السور بسرعه، ومد يده يساعد (دسوقي) على تسلقه، وجلسا أعلى السور يرقبان أي حركة أو صوت قد يصدر من داخل البيت الواسع ذي الطابقين، همس (الزلعي) وهو يمسك بكتف (دسوقي):

ـ "خلّي عينيك عليا زي ما قولتلك.. اللي أعمله تنسخه من غير تفكير.."

ـ "إنت واثق من الخطة اللي قولتلي عليها دي؟"

ـ "عيب عليك.. أنا من بصة واحدة للبيت من بعيد رسمتله خريطة كاملة في دماغي.. إنت مالك بترتعش كده.. إنت خايف ولا إيه؟"

ـ "مرعوب.. وإنت؟"

صاح (الزلعي) بأعلى صوته:

ـ "يا جدع ماتقولش الكلام اللي مالوش لازمة ده.. (الزلعي) مايعرفش يعني إيه خوف.."

علا صوت نباح كلاب قادمًا من مدخل البيت، فدفعه (الزلعي) إلى الأسفل، وقفز هو إلى خارج السور على الناحية الأخرى، فهمس (دسوقي) صائحًا:

ـ "يا (زلعي)! يا (زلعي)!"

أحس بعدو الكلاب ناحيته عبر حديقة المنزل، فجرى بجوار السور ناحية البيت المظلم، كل شجرة يمر بجانبها يقف مستتراَ بها للحظات، قبل أن يكمل عدوه ناحية البيت، ما إن وصل إلى مدخل البيت حتى دار حوله متلمسًا جدرانه، أخبره (الزلعي) أن البيوت الضخمة مثل ذلك البيت تمتلك دائمًا بابًا خلفيًا لدخول الخدم واحتياجات البيت، لمست يده في تلك اللحظة مقبضًا نحاسيًا، أداره بسرعة فانفتح الباب معه في سهولة، دلف إلى الداخل في حرص، وأغلق الباب.. الظلام أكثر سوادًا على الناحية الأخرى، مد يده محاولًا تلمس طريق آمن فارتطمت ببعض الأواني لتسقطها أرضًا في ضجيج، لعن في سره (الزلعي) ألف مرة، ولعن نفسه، لأنه صدق أسطورته دون أن يرى منها شيئًا، فليأتي مروجوا الإشاعات عن صولاته وجولاته يرونه، وهو يقفز على الجانب الآخر كالأرنب، خطا إلى خارج المطبخ في حذر، عندما أحس بتيار كهربائي قوي يسري داخل جسده، وصم أذنه صوت الأزيز الملتصق بظهره، قبل أن يسقط أرضًا كالصخرة.

*****

عاد إليه وعيه دفعة واحدة، فتح عينيه ببطء فلم يتبين شيئًا في أول الأمر، ضاقت حدقتاه وهو يحاول سبر أغوار الإضاءة الخافتة التي تغطي المكان، شاب يرتدي معطفًا منزليًا يضع قدمًا فوق الأخرى، وقد ارتخى جسده فوق مقعده الواسع، يعبث بأصابعه فوق رقبة كلب ضخم جلس على الأرض بجواره، وقد أخرج لسانه يلهث، اعتدل (دسوقي) في جلسته، بينما تكلم الشاب:

ـ "ما اتقابلناش من سنين.. ويوم ما أشوفك تبقى بالطريقة دي!؟"

وضع (دسوقي) يده فوق عينيه محاولًا تركيز بصره المهتز، لتمييز وجه محدثه:

- "إنت مين؟"

قهقه الشاب حتى أرجع رأسه إلى الوراء:

- "تصدق تنفع نكتة.. حرامي يدخل البيت، ويسأل صاحبه: "إنت مين؟""

اتسعت عينا (دسوقي)، وشحب وجهه:

- "(شادي)!؟ (شادي زغدان)؟"

- "(دسوقي الصناديلي).. جار الأيام الحلوة في بورسعيد.. وألفا المدرسة في إعدادي.. إيه اللي عمل فيك كده؟ التعليم طلع مش جايب همه فاشتغلت حرامي؟"

زاغت عينا (دسوقي) هاتفًا:

- "حرامي إيه يا جدع!؟ أنا نزلت القاهرة أشتغل في شركة كبيرة، وشوفتك بالصدفة داخل هنا من يومين.. فقولت أعملهالك مفاجأة.. إنت عارف من ساعة ما سيبت بورسعيد إنت وعيلتك وإنت واحشني جدًا.."

- "من باب المطبخ؟"

- "ما هي دي المفاجأة.."

مال (شادي) إلى الأمام، وابتسم بجانب فمه في سخرية:

- "إنت بتضحك على مين؟ ده إنت ماكنتش بتطيقني وأنا معاك في بورسعيد.. هتلف ورايا مصر كلها علشان تشوفني!؟"

ثم فرك ذقنه بيده مفكرًا:

- "اللي محيرني إن أبوك كان هو الريس على أبويا في المينا قبل ما يفتح مخزن قطع الغيار.. اللي بفكر فيه وإنت قدامي دلوقتي.. معقولة الزمن

يبقى بالقسوة دي، وابن الريس (محفوظ) يبقى حرامي.. يااه!! الدنيا دي غريبة يا جدع!"

ـ "إنت عارف انتوا سيبتوا بورسعيد، ومشيتوا ليه يا (شادي)"

ـ "قصدك موضوع (الكونتينر) اللي اتسرق من عهدة أبويا!؟"

ـ "بورسعيد كلها تعرف مين اللي سرقه.. وشركة التصدير والاستيراد اللي اتفتحت بعدها بكام شهر تشهد"

أسند (شادي) ظهره إلى مقعده، وهو يشبك أصابع يديه أمامه:

ـ "بص يا (دسوقي).. أنا أبويا حرامي سرق المينا.. وأنا كنت فاشل في الدراسة وخدت ثانوية عامة بالعافية، وقعدت بعدها في البيت.. إنت بقى.. أبوك راجل شريف بورسعيد كانت بتضرب بيه المثل في الأمانة.. وإنت كنت الأول على المدرسة في ثانوي.. لكن بتعمل إيه دلوقتي.. طالع تتسحب من ورا ضهره علشان تسرق بيوت الناس.. انسى موضوع بشتغل في شركة كبيرة اللي قولته ده.. الكلام ده ميدخلش دماغ عيل صغير"

ـ "أبويا مات يا (شادي).. وأنا أقدر أشتغل في أحسن مكان بشهادتي.."

رفع (شادي) حاجبيه، ومد صدره وهو يردد ساخراً:

ـ "بشهادتي!!؟ وبتقولها وإنت واثق قوي!؟"

مد يده يداعب عنق الكلب، وهو يقول في شرود:

ـ "تصدق جات في دماغي فكرة عبقرية.. ما تيجي نلعب لعبة.."

في حذر تساءل (دسوقي):

ـ "لعبة إيه؟"

التفت إليه (شادي)، وهو يقول في بطء جذل:

ـ "لعبة مفيش حد جربها قبلنا.. أنا معايا ثانوية عامة وإنت بتقول إنك تقدر تاخد أي شغلانة تعوزها.. هنشوف.. إنت تقدم في الوظيفة اللي

بتتمناها، وأنا أقدم معاك ونشوف مين فينا اللي هيقبل.. إيه رأيك في اللعبة دي؟ مسلية صح؟ وجاية في وقتها تطلع الواحد من حالة الزهق اللي هو فيها"

هم (دسوقي) بالنهوض:

ـ "أنا مش فاضي ألعب"

أشار إليه (شادي) بكفه يستوقفه:

ـ "هتلعب.. لأنك مجبر تلعب"

نقل (دسوقي) بصره بينه وبين الكلب العملاق في قلق:

ـ "وإيه اللي هيجبرني؟"

ـ "ماتقلقش.. مشههددك بحاجة.. التهديد يقتل متعة اللعب، ويخليك عايز تخلص اللعبة بسرعة.. وأنا عايزك في كل مرة تروح تقدم على شغل يبقى عندك أمل.. الأمل دايمًا بيحلي اللعب.. إنت بتدور على وظيفة.. الشركة بتاعة أبويا عايزين فيها موظفين من أي مؤهلات وبمرتبات عالية.. إيه رأيك أحجزلك مكان فيها لو فشلت في الوظايف اللي هنقدملها سوا؟"

ـ "إنت عايز تثبت لنفسك إيه؟"

هز (شادي) كتفيه قائلًا:

ـ "مجرد لعبة بقتل بيها وقتي"

ـ "وهنفضل نلعب لإمتى؟"

ـ "لحد ما أزهق"

نهض (دسوقي) واقفًا، وتقدم ناحية الباب بعد أن ألفت عيناه الظلام، ثم التفت مواجهًا (شادي)، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة:

ـ "أنا مهندس ميكانيكا.. تعرف حاجة عن الميكانيكا يا (شادي)؟"

ابتسم (شادي) وهو يبدل وضع ساقيه:

ـ "أعرف عن حاجات تانية أهم.. إنت ماتعرفش عنها حاجة.."

******

دق الباب المتهالك دقات خافتة، فتح (دسوقي) الباب فوجد أمامه (الزلعي)، وقد ربط رأسه بالشاش الذي ارتفع أعلى رأسه بفضل كدمة كبيرة، وما أن رآه (الزلعي) حتى هتف:

ـ "إنت كويس؟ إنت رجعت إزاي بسهولة كدة؟"

ـ "إنت كنت فين يا (زلعي)؟"

أمسك (الزلعي) رأسه في ألم:

ـ "أنا وقعت على الارض مادرتش بنفسي.. فوقت لقتني سايح في دمي ودماغي وارمة.. جريت على المستشفى خيطولي راسي عشر غرز و..."

مد (دسوقي) يده في سرعه، وأمسك طرف الشاش المتدلي على رأس (الزلعي)، وجذبه بقوة، سقط جسم صغير على الأرض، وإنكشفت رأس (الزلعي) سليمة لا شية فيها.

انحنى (دسوقي) على الأرض ملتقطًا ما سقط، ورفعه إلى عينيه:

ـ "كيس ينسون فتلة!!؟ يا جدع ارحم نفسك! بقى ناقص تاخده في الوريد.. ده طلعلك في دماغك.."

تغير وجه (الزلعي)، فأمسك (دسوقي) بذراعه يشده إلى داخل الحجرة:

ـ "تعالى.. أنا عايز أعرف فين الشقاوة اللي الناس بتحكي عليها.. أومال إيه الخريطة اللي في وشك دي؟"

ثم أشار إلى أحد الندوب البارزة في وجه (الزلعي):

ـ "من إيه دي؟"

ـ "دي أمي زمان حدفتني بالمطرحة وهي بتتخبز.."

ـ "ودي؟"

- "أختي حدفتني بطوبة وإحنا صغيرين.."

- "هما كانوا عاملين وشك نشان.. يعني معندكش جروح من خناقات خالص؟"

قلب (الزلعي) ذراعه مشيراً إلى خربشة ظاهرية:

- "لأ إزاي!؟ أهيه!"

- "إيه ده؟ إنت كنت بتتخانق مع فرخة؟ بص يا (زلعي)!"

قالها وهو يدفعه ناحية الباب إلى الخارج.

- "أنا مش عايز أعرفك تاني.. ولو شوفتني في الشارع ماتسلمش عليا.. بدل ما أفضحك قدام الناس، وأخلي العيال الصغيرة تحدفك بالطوب بعد ما يعرفوا حقيقتك.."

ثم دفعه إلى الخارج وسط هتافات (الزلعي) المحتجة، وأغلق الباب في عنف..

*****

ضم (دسوقي) ساقيه إلى بعضهما، وهو يجلس على المقعد الجلدي في مكان الانتظار لتلك الشركة المشهورة في مجال تجميع السيارات، كان قد قرأ في الجريدة التي استعارها من جاره في المواصلات العامة عن الإعلان الذي نشرته الشركة عن حاجتها إلى مهندسين شباب، ويشترط التقدير العالي طوال سنوات الدراسة، فتوجه من فوره إلى مكان الشركة، وقدم أوراقه التي يحملها تحت إبطه عندما يخرج من بيته في الصباح كل يوم، ربما قابلته الفرصة التي ينتظرها، وها قد جاءت إليه تفتح ذراعيها، لم ينسَ أن يتصل على صاحبه، ليعلمه بميعاد وعنوان المقابلة، فقط ليرى نظرة الهزيمة على وجهه، وليعلم أن سنوات عمره التي أضاعها في التعليم، وسهر الليالي الطوال لم يذهب هباء، هذه الشركة الكبيرة لن يفت في عضدها محاولات

فرض النفوذ التي يتقنها (شادي) وأمثاله، فقط يهمها الاجتهاد في العمل والمثابرة، وهو ما يمتلكهما هو وليس ذلك (الدلوعة)..

ابتسم إلى مدير مكتب رئيس مجلس إدارة الشركة، والذي لم يعره اهتمامًا وهو يتحدث مع السكرتيرة للحظات، قبل أن يدخل إلى الغرفة الكبيرة مرة أخرى.

بعد حوالي ساعتين من الانتظار، انقلب حال الشركة كلها رأسًا على عقب، حتى خرج رئيس الشركة نفسه من حجرته مادًا ذراعه بأكمله إلى الرجل مبهر الأناقة الذي تعرفه (دسوقي) على الفور، من وراءه ظهر (شادي) وهو يفرك عينيه في نعاس وملل، قال الرجل ضاحكًا:

ـ "مسكت في دماغه فكرة الشغل هنا يا سيدي.."

ضم رئيس الشركة طرفي حُلته وهو يهتف:

ـ "يا فندم ده إحنا يبقى لينا الشرف إن إحنا نشتغل معاه.."

دار (شادي) بعينيه في المكان حتى توقفتا على (دسوقي) المنكمش في جلسته، ورئيس الشركة يسأله:

ـ "تحب حضرتك تنور أي قسم في الشركة؟"

رمق (شادي) غريمه بنظره ساخره، ورفع صوته قائلًا:

ـ "أي حتة فيها ميكانيكا.."

قهقه الرئيس بملئ فمه:

ـ "دمك خفيف جدًا.. أهي دي الروح اللي كانت نقصانا في الشركة.."

مد الرجل يده مصافحًا واستدار ليغادر، وفرد رئيس الشركة ذراعه ناحية (شادي) الذي وضع كفه على فمه متثائبًا دون أن ينظر إليه، ولم ينسَ أن يلقي نظراته المهينة ناحية (دسوقي) قبل أن يرحل.. انتفض (دسوقي) واقفًا، وتوجه ناحية رئيس الشركة قائلًا:

ـ "يا فندم أنا بقالي أكتر من ساعتين قاعد مستني المقابلة.."
تفحصه الرجل بعينيه، ثم التفت إلى مدير مكتبه:
ـ "شوفه عايز إيه؟"
أمسك مدير المكتب بذراع (دسوقي) في حدة:
ـ "هو أنا مش مالي عين سيادتك.. كويس لما تجيبلنا الكلام.. نعم؟"
ـ "بخصوص الوظيفة.."
قاطعه الرجل في سرعة:
ـ "انشغلت"
صاح (دسوقي) ثائرًا:
ـ "يعني إيه انشغلت!؟ أنا جاي قبل أي حد! وأنا أولى بيها من أي حد!"
التفت مدير المكتب إلى السكرتيرة:
ـ "اطلبي الأمن"
فتح (دسوقي) الملف في يده وكأنه لم يسمعه، وردد في هياج:
ـ "آدي شهادة بكالوريوس الهندسة، وبتقدير جيد جدًا.. كورس الكمبيوتر والإنجليزي والتنمية البشرية معايا.. بشتغل زي التور في الساقية ومش بقول لأ.. عايزين إيه تاني؟"
حضر رجلا الأمن فأمسكا بذراعيه يجرانه إلى الخارج، وهو يصرخ:
ـ "أنا ليا حق إني أشتغل.. أنا عملت اللي عليا، وحطيت دماغي في التعليم زي ما قولتولي.. فين الشغل؟ أمي هتموت لو ما لقيتش شغل.. فين الشغل؟"
عدل مدير المكتب رابطة عنقه في توتر، وتابع فردا الأمن وهما يجذبان جسد (دسوقي) على السلالم، قبل أن يدخل غرفته ويغلق بابها وراءه.

*****

في اليوم التالي، جلس (دسوقي) يهز قدمه في توتر منتظراً إتمام المقابلة، لم يتصل بزميله هذه المرة بعد أن رأى سطوته، وما يستطيع فعله على أرض الواقع، عندما رآه يعبر باب المكتب وهو يتثاءب، ويتقدم ناحيته، ويجلس على المقعد المجاور له، ثم يتكلم بلهجة لائمة ساخرة دون أن ينظر ناحيته:

ـ "مش قولنا ماتروحش مقابلة إلا لما تقولي.. يرضيك أعرف من برة.."

ثم التفت إليه، ونظر إلى داخل عينيه قائلًا:

ـ "كده كنت عايز تبوظ اللعبة؟"

ـ "عرفت إني هنا منين؟"

هز (شادي) كتفيه بلامبالاة:

ـ "مش مهم.."

ارتسمت في عيني (دسوقي) نظرة انتصار قائلًا:

ـ "فعلًا مش مهم.. عارف إيه المهم.. إن المقابلات هنا لازم تحجز ميعاد قبلها في الشركة.. يعني مش هتقدر تعمل حاجة.."

ابتسم (شادي) ابتسامته المستفزة، وأمسك كف (دسوقي)، وهو ينهض:

ـ "إيه اللي إنت بتقوله ده يا جدع!؟ أنا كلمت صاحب الشركة في التليفون وأنا جاي.. طلع صاحب أبويا، وباركلي على الوظيفة من غير مقابلات ولا غيره.."

ظل (دسوقي) جالسًا ينظر إليه في شك.

ـ "مش مصدقني؟ طيب هتشوف.."

في اللحظة التالية، خرجت السكرتيرة من حجرة جانبية تعتذر للموجودين بأن الوظيفة المذكورة في الإعلان قد شُغلت، فانطلقت ضحكة (شادي) مجلجلة، وهو يجذبه لينهض قائلًا:

- "تعالى.. أوصلك تعالى"
ظلا طوال الطريق صامتين، حتى توقفت العربة في إشارة مزدحمة، فالتفت (شادي) يواجهه قائلًا:
- "إنت سألتني في البيت أنا عايز أثبت لنفسي إيه؟ عرفت دلوقتي أنا عايز أثبتلك إيه قبل ما أثبت لنفسي؟ أنا عايزك تعرف إن شهادتك اللي إنت خدتها بعد تعب، وحرقة دم ماتساويش حاجة قدام نفوذ واحد فشل في التعليم، لكن نجح في الأهم منه.. الحياة نفسها.."
استمع (دسوقي) إليه بعينين حمراوين، وصدر يعلو ويهبط من الانفعال.
- "بلاش تروح مقابلات من ورايا تاني.. قولتلك أنا بس اللي ليا الحق أنهي اللعبة دي.. وأنا لسة مازهقتش من اللعب بيك.. قصدي معاك"
ألقى أحد الأطفال الذين يمرون من بين العربات ورقة داخل السيارة سقطت على فخذ (دسوقي)، حانت منه التفاتة عابرة إليها، قبل أن يمسكها ويقربها من وجهه في اهتمام، ثم يلتفت إلى (شادي)، وقد انفرجت أساريره، مبتسمًا في خبث:
- "مسابقة للشعر، وفيه مبلغ مكافأة للفايز.. أنا هقدم.. تعرف حاجة عن الشعر يا (شادي)؟"
ابتسم (شادي) ساخرًا:
- "أكتر ما كنت أعرف عن الميكانيكا.."

*****

هتف الشاب النحيل الواقف على باب اللجنة:
- "اسمعوني يا جماعة.. العدد اللي حضر كبير جدًا.. علشان كده هتدخلوا للجنة كل اتنين مع بعض.. واحد هنعتذرله، والتاني هيكمل معانا.. لحد ما

نصفي آخر اتنين مع بعض.. كل واحد يختار اللي هيدخل معاه من دلوقتي"
ساد الضجيج بين الواقفين، فغمغم الشاب في ضيق:
ـ "مصر كلها بقت شعرا.. ده لو كل واحد كتب بيت الورق اللي في البلد هيخلص"
اقترب منه (دسوقي)، ورفع صوته ليسمعه:
ـ "أنا محَضّر اللي هيدخل معايا"
أشار له الشاب أن يتقدم، فشق طريقه وسط الصفوف يتبعه (شادي) حتى دخلا من الباب، وأغلقه الشاب وراءهما.
كانت اللجنة مؤلفة من رجلين أحدهما أشيب الرأس، والآخر يرتدي حُلة فاقع لونها لا تسر الناظرين، جلست بينهما امرأة تمضغ علكة، وكأنها تعجنها بأسنانها في غل، طلب أحد الرجلين أن يملياه أسماءهما ففعلا، ثم طلب من أحدهما أن يبدأ، فتنحنح (دسوقي) قبل أن يتكلم:
ـ "بداية الكلام.."

"افتح عليه شعرك وابدأ معاه نثرك
المصطفى المختار الفاك في أسرك
النور في ظلمتنا الجبر في كسرك
الهادي في الغفلة واليسر في عسرك"

توقف للحظات، والعيون متعلقة به..
ـ "من بعد ما عدى ببحر الظلم
وبحر القهر وبحر العار
حس إنه بقوة ميت بحار

فك الاحبال وفرد صدره

نط اتشعلق ع الصاري وزام

صرخ في البحر وبرقله

أنا غصت في قلبك من سابق

بحوالي العام

وإن كان جواك في الليل تيار

أنا ميت تيار

اتمطى البحر قلب قاربه

مين يقدر ع البحر وغضبه

مستني..."

قاطعه الرجل ذو البدلة زاهية الألوان، فاردًا كفه:

- "بس كفاية.. ليل وبحر.. الرطوبة كلت الأوضة.. اتكلم إنت.."

تقدم (شادي) من المائدة الخشبية التي يجلسون عليها، وأخرج ثلاثة كروت مررها عليهم، ثم عاد إلى مكانه في ثقة..

تهللت أسارير المرأة والرجل الذي أشار إليه منذ قليل، بينما مط الرجل أشيب الشعر شفتيه، ووضع الكارت أمامه قائلًا:

- "ومحضر سيادتك حاجة ولّا مش لازم؟"

أخرج (شادي) ورقة طويلة من جيبه قائلًا في حماس:

- "لأ محضر قصيدة.."

فرك الرجل كفيه في ضيق:

- "طيب اتفضل.."

- "قومت الصبح على خناقة.."

خبطت المرأة على صدرها في جزع:

- "ليه يا حبيبي؟ كفى الله الشر!"
- "لأ ده اسم القصيدة.."
- "طيب اتفضل يا قلبي.."
- "قومت الصبح على خناقة
بابي بيتخانق مع مامي
مامي عايزة تروح الكوافير
وبابي كان راقد على السرير
فجأة بابي نط وقام
وأخد مامي ست أقلام
وقالها إصحي يا مدام
بدل ما تروحي الكوافير
راعي ابنك
ده بقى في سن خطير
مامي قالتله لو مش عاجبك
شد حواجبك
ليت شعري كيف أبدو
وأم عبدو
واقفة تنشر في لباسي"
قاطعه الرجل وهو يمد وجهه إلى الأمام:
- "إيه؟ تنشر إيه!؟"
قرب الورقة من وجهه، ودقق النظر ثم هتف:
- "ملابسي.. ملابسي.. أقول من أول القصيدة؟"
في نفاد صبر رد الرجل:

ـ "لأ.. من عند (أم عبدو).."
رفع الورقة أمام عينيه مرة أخرى، وعاد يقرأ:
ـ "ليت شعري كيف أبدو
وأم عبدو
واقفة تنشر في ملابسي
روحت ناحية البلكونة
ورميت جنية
ونزلت أوطي عليه
قالتلي سيبه يا بيه
أنا هجيبهولك
طلعت مفتحة بنت الإيه
ورجعت وأنا مجروح في نفسي
يادي يأسي.. يادي يأسي"
هزت المرأة رأسها، وهي تضغط بأسنانها على العلكة في غيظ:
ـ "برافو.. برافو.."
ـ "كمان بألف قصايد صغيرة.. أقول حاجة منها؟"
ـ "طبعًا.. اتفضل يا عنيا.."
ـ "ماتجرحش حد قوي
علشان اللي إنت جرحته
ممكن يخر دم"
صرخ الرجل:
ـ "يخر!!؟"
ارتبك (شادي)، وطوى ورقته:

ـ "أومال إيه؟ نخليها يبظ دم؟"
ـ "هو سندوتش!؟"
تكلمت المرأة، وهي تحدج الرجل بجانبها بنظرات حادة:
ـ "ماتقلقش يا حبيبي.. استنى بره شوية علشان النتيجة.. وحضر نفسك للدخول تاني.."
خرجا من الحجرة، والتفت (شادي) إلى منافسه:
ـ "طبعًا مش محتاجين نستنى نعرف النتيجة.. وبعدين كفاية لعب لحد كدة.. أنا متأكد إنك فهمت الدرس.. بكرة هبعتلك عنوان الشركة تروح تقابلهم.. أنا كدة وفيت باتفاقي معاك.."
تركه دون كلمة أخرى، واتجه ناحية باب الخروج، وهو يرفع بنطاله في تثاقل، تابعه (دسوقي) بعينيه حتى خرج، ثم جلس على المقعد في نهاية الممر مغمغمًا:
ـ "يا بلدنا يا عجيبة فيكي حاجة محيراني.. نزرع القمح في سنين يطرح القرع في ثواني.."

*****

في اليوم التالي، وقف يعدل من وضع رابطة عنقه في مرآة المصعد، وعندما وصل إلى وجهته، خرج منه قاصدًا الغرفة في نهاية الطابق كما أخبره (شادي)، طرق بابها في هدوء، وانتظر حتى سمع صوتًا يدعوه للدخول، خطا إلى داخل الحجرة، ومد ذراع في ود إلى الرجلين اللذين قاما لتحيته، عرف نفسه إليهما، فدعاه أحدهما إلى الجلوس وهو يخفي ضحكة مكتومة، ويتبادل النظر مع زميله..

جلس (دسوقي)، وأخرج ملف شهاداته من الحقيبة التي يحملها، وقلب أوراقه وهو يشرح لهم فائدة كل ورقة حصل عليها، وبما ستفيده في عمله، فلما انتهى أزاح أحدهما الملف جانباً، وهو يقول:

ـ "سيبك من الملف ده والشهادات اللي فيه.. قولي أنا ليه أشغلك إنت وماشغلش (مازنجر) مثلًا؟"

التفت الآخر إلى زميله مشيراً بسبابته:

ـ "أو (جيم كاري).. أنا بحب (جيم كاري)"

نقل (دسوقي) بصره بينهما في حيرة غير مستوعب ما يقولانه:

ـ "(جيم كاري) مش مهندس"

ـ "بس بيضحّك"

تكلم الآخر بابتسامة ساخرة:

ـ "و(مازنجر) هارد ووركر"

تأملهما (دسوقي)، وقد أدرك أنهما يسخران منه، فتناول الملف من على المكتب، ووضعه داخل حقيبته في هدوء.

رسم أحدهم على وجهه الجدية، وهو يقول:

ـ "طيب شايف نفسك فين بعد عشر سنين؟"

نظر (دسوقي) داخل عينيه، وتكلم في بطء:

ـ "شايف البلد دي بعد عشر سنين وأنا مش فيها.. شايفها بتزيد قسوة عليا وعلى اللي زيي.. المنتجعات والقرى السياحية بتزيد.. والعشش اللي جوه العشوائيات برضه بتزيد.. انتوا بتحاولوا تقسموها بكل قوتكم .. مستشفيات خاصة، ومدارس خاصة، وجامعات خاصة، وتجمع سكني خاص على بوابته أمن.. والشرخ بيوسع ويزيد.. شايف ناس فهمت إن اللي بيذاكر

بيقابل الذل، واللي بيلعب كورة بيقابل الريس.. واللي يدوب بينجح محجوزله لقب باشا"

نهض واقفًا وهو يحمل حقيبته، وغادر المكان أمام نظراتهما الصامتة، لا يدري بعدها كيف وصل إلى الشارع، عندما رن جرس هاتفه، فرفعه إلى أذنه في بطء.

ـ "شد حيلك يا (دسوقي)"

انفجرت عيناه بالدموع، ونزل على ركبتيه يلامس أرض الشارع:

ـ "ماتت؟ أمي ماتت يا عم (حنا)؟ مين دفنها؟ مين صلى عليها؟ إيه آخر حاجة قالتها؟ كانت زعلانة مني؟ طيب استعجلت ليه يا عم (حنا)؟ استعجلت تمشي ليه قبل ما أشوفها؟"

ثم رفع رأسه إلى السماء، وصرخ من وسط دموعه:

ـ "يااااا رب! يااااا رب!"

كان الناس قد تحلقوا حوله في فضول، عندما شق صفوفهم شاب نهرهم على تجمعهم، وأمرهم أن ينفضوا، ثم اقترب من (دسوقي) يجذبه من ذراعه لينهضه، فالتفت إليه وكأنه يدرك وجوده للمرة الأولى، ابتسم الشاب في وجهه ابتسامه مُطَمْئِنَة، وهمس إليه:

ـ "ماتخافش.. أني اسمي (سيد).. (سيد الحسنين).. أني معاك إلى أن يهدأ روعك بإذن الله.. اعتبرني أخ ليك من اللحظة دي.."

** ** **

(٥)

قال (يحيى) وهو يحاول التماسك فوق مقعده:

ـ "إن التكفير هو آفة فكركم الدائمة.. ومرضكم الذي لا تحاولون البراء منه.."

ابتسم الرجل بجانب شفتيه ساخرًا:

ـ "قل لي يا دكتور (يحيى).. هل تكفي كلمة التوحيد للحكم بدخول صاحبها في الإسلام؟"

فرد (يحيى) كفيه المقيدتين أمامه قائلًا:

ـ "شهادة أن لا إله إلا الله، وأن (محمدًا) عبده ورسوله تقتضي اليقين بمعناها، والبراءة من الشرك، وإخلاص القول والعمل: قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح.. ولكنني سأصل معك إلى ما تريده مباشرة وأقول.. استيقان القلب من الشهادة أمر لا تستطيع معرفته لا أنت ولا أنا ولا أي من عبيد الله.. ولهذه الحكمة فإن الحساب بيد الله -سبحانه وتعالى- وحده.. أما قولكم بأن استيقان القلب لابد وأن يظهر على سلوك العبد بابتعاده عن أي معصية أو كبيرة وإلا أصبح قلبه غير مستيقنًا بالشهادة فوجب الحكم بالكفر عليه.. فإن من يرتكب المعصية أو السيئة ثم يتوب إلى الله تعالى نادمًا عازمًا على ألا يعود لمثلها وإن عاد فهذا لا يخرجه من دين الله أو يوقعه في الردة.. فإن المعصية تؤثر على الإيمان من حيث زيادته ونقصانه، لا من حيث بقائه وذهابه.. وقد أخبر (أبو هريرة) عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ـ "أذنب عبد ذنبًا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال الله -تبارك وتعالى-: أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أن له ربًا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي ربي اغفر لي ذنبي، فقال -تبارك وتعالى-: أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ

بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي ربي اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أن له ربًا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، قد غفرت لعبدي، فليعمل ما شاء""

أرجع الرجل رأسه إلى الوراء ضاحكًا في توت:

ـ "فليعمل ما يشاء!!؟ إذن فلتُباح المعصية والإثم!؟"

تأمله (يحيى) في غضب:

ـ "المعنى ما سبق من مغفرة الذنب إذا استغفر وأناب.. والحديث أورده (البخاري) في كتابه و(مسلم) في صحيحه، فهو حديث صحيح، ولا تجوز السخرية منه"

لوح الرجل بذراعه قائلًا:

ـ "أنا أسخر من فهمك للحديث.. لا من الحديث نفسه.. فإذا كان قلبك مطمئنًا لهذا التفسير.. فبما ترد على قول الله -تعالى-: ـ "بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون"؟"

هز (يحيى) كتفيه في هدوء:

ـ "أشار (ابن كثير) إلى تفسير السلف -رضي الله عنهم- للسيئة والخطيئة هنا بأنها إما الكفر والشرك، وقد ذهب إليه (ابن عباس) و(أبو هريرة) و(مجاهد) و(عكرمة) و(قتادة).. وإما الكبيرة من الكبائر التي يصر العبد عليها، وإليه ذهب (السدي) و(أبو رزين).. ولا يُفهم من هذا أن يفعل المسلم ما يشاء من الذنوب.. فمن اعتقد في حِل شيء مما عُلم تحريمه بالضرورة، وأجمع على تحريمه، وظهر حكمه بين المسلمين، وزالت الشبهة فيه كان كمن أنكر الدين من الأساس.. فمن زنا أو وقع في الحرام، ثم تاب عالمًا بذنبه وكبيرته نادمًا عليها، فأمره متروك إلى الله -تعالى- إن شاء قبل توبته وإن شاء لم يقبلها، وظننا برحمته أن يقبلها.. أما من زنا وهو على

يقين بأن الزنا حلال أو أن ما جاء في تحريم الزنا هو محض افتراء فقد أنكر الدين من الأساس.. وهذا شأن آخر غير ما نحن بصدده.. ويقول علماء المسلمين في هذا: "إذا وجد تسعة وتسعون وجهًا تشير إلى تكفير مسلم، ووجه واحد على ابقائه على إسلامه، فينبغي للمفتي والقاضي أن يعملا بذلك الوجه".. وهو مستفاد من قوله عليه السلام: "ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم""

قال الرجل وقد عاد إلى هدوئه:

ـ "فإن لم يكونوا قد كفروا بارتكابهم المعاصي على حد قولك.. فقد كفروا بارتضائهم الاحتكام إلى غير أحكام الله، وخضوعهم إلى غير شريعة الله.. وهذا فيه كفر صريح لا جدال فيه.."

اعتدل (يحيى) في مقعده قائلًا:

ـ "وها قد جئنا إلى مربط فرسكم، وأساس حجتكم البالية التي أقمتموها على رقاب الناس.. وفيها أقول لك أن من لم يحكم بما أنزل الله هو لمن حكم بغير ما أنزل الله معتقدًا أن ما جاء في الشريعة الإسلامية من أحكام الله لا صلاح فيها.. وقد قال الإمام (الرازي) في تفسير قوله تعالى: ـ "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون".. أنه إنما يتناول من أنكر بقلبه، وجحد بلسانه، أما من عرف بقلبه كونه حكم الله، وأقر بلسانه كونه حكم الله إلا أنه تارك له فعلًا، فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية.. وقال الإمام (البيضاوي) أنه من لم يحكم بما أنزل الله مستهينًا به منكرًا له، فأولئك هم الكافرون لاستهانتهم به، وتمردهم بأن حكموا بغيره، وكذلك وصفهم بقوله الكافرون الظالمون الفاسقون، فكفرهم لانكاره، وظلمهم بالحكم على خلافه، وفسقهم بالخروج عنه"

هتف الرجل في ثورة:

ـ "ما قيمة كلام (الرازي) و(البيضاوي) أمام كلام شيخ الإسلام (ابن تيمية) الذي قال: ـ "والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه، أو حرم الحلال المجمع عليه، أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافراً باتفاق الفقهاء؟"

هز (يحيى) رأسه نفياً في قوة:

ـ "هذا من أجرأ وأظلم ما قلتم على شيخ الإسلام.. فقد اقتطعتم جزءاً مهما من حديثه كعادتكم في تلفيق الأقوال الباطلة إليه.. فقد قال الشيخ -رحمه الله-: ـ "والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه، أو حرم الحلال المجمع عليه، أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافراً مرتدًا باتفاق الفقهاء، وفي مثل هذا نزل قوله على أحد القولين: ـ "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون".. أي: المستحل للحكم بغير ما أنزل الله.. وقد حذفت الكلام الأهم في المسألة، وهو: المستحل للحكم بغير ما أنزل الله.. وبعد سطور من كلام الشيخ (ابن تيمية) الذي أوردته يقول: ـ "والشرع المبدل هو الكذب على الله ورسوله أو على الناس بشهادات الزور ونحوها والظلم البين، فمن قال: إن هذا من شرع الله فقد كفر بلا نزاع.. أي أن من حكم بما عنده على أنه من عند الله، فهو تبديل يوجب الكفر".. كما قال شيخ الإسلام أيضًا في فتواه أنه ليس كل مخطئ كافراً، لا سيما في المسائل الدقيقة التي كثر فيها نزاع الأمة.. وقد أورد العلّامة (أبو حيان الأندلسي) في البحر المحيط: ـ "واحتجّت الخوارج بهذه الآية على أن كل من عصى الله –تعالى- فهو كافر".. وقالوا هي نص في كل من حكم بغير ما أنزل الله فهو كافر.."

احمّرت عينا الرجل غضباً، وهو يهتف:

ـ "لقد انتقيت من التفاسير ما يخدم وجهة نظرك.. ولستُ مضطراً لقبولها أو حتى الاستماع إليها.."

مال (يحيى) بجسده قائلًا:

ـ "إذا كنت غير مضطرًا لقبول إجماع أهل العلم.. فإلامَ تكون مضطرًا!؟ أدخل رجل من الخوارج على (المأمون).. فقال: ـ "ما حملك على خلافنا؟".. قال: ـ "آية في كتاب الله تعالى".. قال (المأمون): ـ "وما هي؟".. قال: ـ "قوله تعالى: ـ "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون".. فقال له (المأمون): ـ "ألك علم بأنها مُنزَلة من عند الله تعالى؟".. قال: ـ "نعم".. قال (المأمون): ـ "وما دليلك؟".. قال: ـ "إجماع الأمة".. قال: ـ "فكما رضيت بإجماعهم في التنزيل، فارضَ بإجماعهم في التأويل".. قال: ـ "صدقت، السلام عليك يا أمير المؤمنين""

هتف الرجل غاضبًا:

ـ "تكفيني فتاوى شيخ الإسلام (ابن تيمية) في تكفيرهم وإهدار دمهم.."

هز (يحيى) رأسه نفيًا مرة أخرى:

ـ "يعلم الله أن شيخ الإسلام أبعد ما يكون في آرائه وفتواه عن تهم التكفير والتشدد اللذين تحاولون الصاقهما به.. وقد أوردت لك بعض من فتواه في هذه المسألة، ومنها أيضًا أنه قال: ـ "وليس لأحد أن يكفر أحدًا من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة وتبين له المحجة، ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهه"..

وقال: ـ "كلما رأوهم قالوا: من قال كذا فهو كافر، اعتقد المستمع أن هذا اللفظ شامل لكل من قاله، ولم يتدبروا أن التكفير لـه شروط وموانع قد تنتفي في حق المُعيّن، وأن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المُعيّن إلا إذا وجدت الشروط، وانتفت الموانع يبين هذا أن الإمام (أحمد) وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات لم يُكفّروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه..""

نظر الرجل ناحية الشاب الذي بدل بين قدميه في توتر قائلًا:
- "قانون الياسق يا مولانا.."
التفت الرجل ناحية (يحيى) في انتصار:
- "فماذا تقول فيما أورده الإمام (ابن كثير) أن من خرج عن حكم الله المحكم، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كان كمن يحكم بما ارتضاه التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم (جينكيزخان) الذي وضع لهم قانون الياسق؟ وأن من فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل أو كثير؟"
عقد (يحيى) حاجبيه في جدية:
- "أولًا: لابد أن تعلم أن قانون الياسق أو الياسا هو كتاب مجموع من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها.. وفيها الكثير من الأحكام أخذها (جينكيز خان) من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعًا متبعًا. ثانيًا: أن (جينكيز خان) كان مشركًا بالله من الأصل، يعبد معه الشمس ولم يكن مسلمًا، فهو كافر أصلي.. وكان التتار يعتقدون فيه أنه ابن الله.. ويقولون: - "إن الشمس حَبّلَت أمه، وأنها كانت في خيمة، فنزلت الشمس من كوة الخيمة، فدخلت فيها حتى حَبِلت".. وكانوا يقولون لما عندهم مال: - "هذا رزق (جنكسخان)، ويشكرونه على أكلهم وشربهم".. فاعتقدوا فيه الألوهية.. ويقال أنه أمر أولاده بجمع العساكر، واختلى بنفسه في شاهق جبل مكشوف الرأس واقفًا على رجليه لمدة ثلاثة أيام على ما يقال، فزعم أن الخطاب أتاه بأنك مظلوم واخرج تنتصر على عدوك، وتملك الأرض براً وبحراً.. وكان يقول: - "الأرض ملكي، والله ملكني إياها".. ولا زال أمره يعظم ويكبر، وكان من أعقل الناس وأخبرهم بالحروب، ووضع لهم شرعًا

اخترعه، ودينًا ابتدعه.. وذكر بعضهم أنه كان يصعد الجبل، ثم ينزل، ثم يصعد، ثم ينزل مرارًا، حتى يعي ويقع مغشيًا عليه، ويأمر من عنده أن يكتب ما يلقى على لسانه حينئذ، فالظاهر أن الشيطان كان ينطق على لسانه بما فيها.. وذكر (الجويني) أن بعض عبادهم كان يصعد الجبال للعبادة، فسمع قائلًا يقول: ـ "إنا قد ملّكنا (جنكيزخان) وذريته وجه الأرض".. فمشايخ المغول كانوا يصدقون بهذا، ويأخذونه مُسَلَّمًا.. ثالثًا: المتحاكمون إلى قانون الياسق أو الحاكمون به كانوا يقدمونه على شرع الله أو يساوونه به.. أو ينسبونه إلى الله تعالى، وهذا هو تبديل الشرع الذي يوجب الكفر.."

غمغم الرجل بعينين زائغتين:

ـ "وفتوى العلّامة (ابن إبراهيم) بأن الحاكم بالقوانين الوضعية كافر كفر أكبر ينقله عن الملة؟"

أسند (يحيى) ظهره إلى الوراء قائلًا:

ـ "العلّامة (ابن باز) أكبر تلامذة الشيخ (محمد ابن ابراهيم) قال في هذه الفتوى: ـ "عندي فيها توقف، أنه ما يكفي هذا حتى يعرف أنه استحله".. أي اشترط الاستحلال كما أوردنا.. وإن كنت ترى في الحكام بالقوانين الوضعية كفار وطواغيت.. فقد دعا ثلاثة من الخلفاء، وهم (المأمون) و(المعتصم) و(الواثق) إلى القول بخلق القرآن.. ومع هذا لم يكفرهم السلف، بل كانوا يرون إمامتهم.. ورغم كل ما أوردته لك من شواهد على خطأ مزاعمكم بتكفير المسلمين واستحلال دمائهم، فإنني قد أفنيت سنين عمري في المناداة بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية السمحاء، واستبدال أحكام الشريعة بالأحكام الوضعية.. ولكنكم للأسف أسأتم لصورة الشريعة عند عامة الناس، وزرعتم داخل عقولهم بهتانًا وجهلًا أن تطبيق أحكام

الشريعة الإسلامية تعني تطبيق الحدود فقط، وليس إلزام الحاكم بإشباع الناس، وتوفير حاجاتهم، والتراحم، ورد الحقوق، واتقان العمل والتفاني فيه، وغير ذلك مما يأمرنا به الله تعالى، ويرشدنا إليه رسوله الكريم.. وكانت النتيجة أن صارت لفظة تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية تعني عند الناس العقاب فقط، وهي أبعد ما تكون عن ذلك.. صرختم في وجوه الناس تخوفونهم من حد الزنا وحد السرقة، ولم تبينوا لهم شروط تطبيق الحدين التي ربما تكون من الاستحالة بمكان في زمننا هذا.. ثم إنك في كل فتواك تفتش في قلوب الناس عن بُغياك المريضة.. تحاول الصاق تهمة الكفر بالمسلم الذي أقر إسلامه.. فما بالك بمن عُرف نفاقه يقينًا، وسب الرسول، وأذاه في عرضه، وحرض أتباعه على عدم دفع الزكاة، حتى ينفض المسلمون عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بل وانسحب بثلث جيش المسلمين في غزوة أحد تاركًا سبعمائة من المسلمين يواجهون ثلاثة آلاف من مقاتلي قريش والأحابيش، ورغم ذلك يأمر الرسول ابنه (عبد الله بن (عبد الله) بن (أبي بن سلول)) قائلًا: ـ "بر أباك وأحسن صحبته".. وبعد موت أبيه مرضًا يعطيه الرسول قميصه ليكفنه فيه، ثم يقوم مصليًا عليه، ومستغفرًا له أكثر من سبعين مرة، حتى ينزل قوله تعالى معاتبًا الرسول: ـ "ولا تصل على أحد منهم مات أبدًا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون".. في سورة النور.."

استند الرجل على فخذيه مميلًا جسده ناحية (يحيى):

ـ "كل ما أسهبت في قوله لا يؤثر على قدسية فريضة الجهاد.. ويمكن دحضه كاملًا بآية السيف من كتاب الله تعالى.."

أشار إليه (يحيى) بكفيه المقيدتين:

ـ "هذا زعمك وزعم بنو فكرتك الذي أفنده لك بالدليل بإذن الله تعالى.."

**** ** ****

(٦)

شبك قائد المنطقة العسكرية في شمال سيناء أصابعه أمام وجهه، ودار بعينيه متأملًا وجوه شيوخ القبائل والعوائل الجالسين حوله، الاجتماع مستمر منذ ما يزيد عن الساعتين بين أخذ ورد، يحاول استمالتهم تارة، ويحاول بصيغ التهديد تارة أخرى، مؤكدًا لهم وجود معلومات أن بعض ممن ينفذون العمليات الدموية يختبؤون في بيوت الأهالي.. تكلم شيخ طاعن في السن بصوت متحشرج:

- "اسمع يا باشا.. إحنا تعاونا مع الحكومة كتير، وبلغنا عن غربا ياما أول ما رجلهم ضربت على أرض رفح.. لكن اللي بتتكلم عنهم هادول ولادهم.. كيف بتطلب منهم يسلموا ولادهم!؟"

علا صوت القائد في انفعال:

- "ولادهم دول بيقتلوا ناس أبريا ومالهمش ذنب، ويرجعوا يناموا في حضن أهاليهم"

هتف رجل في منتصف العمر، وهو يدير وجهه:

- "سلمنا كتير وبلغنا كتير.. وماشوفناش أي إشي من اللي اتوعدنا بيه.. بنسمع كلام خطط التنمية من سنة ٩٥.. ولا مدرسة اتبنت، ولا مستشفى اتفتحت"

سرت الهمهمات الموافقة في غضب على ما قيل، فتلفت القائد حوله في عصبية، حتى توقفت عيناه على وجه الشاب في نهاية الطاولة، والذي جلس يتابع ما يحدث في صمت، وقد استند بذقنه على قبضته، وبدا أن له كلمة مسموعة، ويؤخذ بها عند مشايخ العوائل.

- "إيه رأيك في الكلام اللي بتقوله المشايخ يا (نزار)؟"

ابتسم الشاب عندما تجمعت العيون فوق وجهه:

ـ "أول مرة يا باشا تطلب مني الكلام.. كل مرة كنت بتطلب سكوتي.."
انتظر ردًا لم يأت، فاعتدل في جلسته قائلًا:
ـ "اللي قاله الشيخ (راشد) حق.. معظم اللي قاعدين قدام سعادتك -وكلهم إعمامي وخلاني- مابيعرفوا يفكوا الخط.. هادا الكلام ينطبق على ولادهم وولاد ولادهم مش كره في المدارس، لكن من عدمها.. معظم اللي موجودين كبار عوايلهم ماراح تلاقي لهم بيانات في السجل المدني المصري.. يعني الدولة ما تعرف عن حياتهم إشي، وحتى مماتهم.. ده غير مشكلة الجنسية اللي مستكترنها علينا"
في ضيق تمتم القائد، وهو يضم كفيه:
ـ "كل المشاكل دي مش هتتحل بين يوم وليلة.. دي مشاكل عمرها من عمر الدولة نفسها.. أنا معاكم إن الحكومات اللي فاتت كلها قصرت في حقكوا.. ولو كل حكومة عدت على البلد كانت عملت كشك سجاير في شمال سينا كان زمانها اتغيرت.. لكن إحنا بنتكلم دلوقتي عن أرض بتفلت من إيدينا.. أرض دفعنا فيها أعمار شباب مننا ومنكوا علشان ترجعلنا.. وهما مانسيوش ده.. دلوقتي بيلفوا لفة جديدة، علشان ياخدوها من غير ما يكونوا في الصورة.. وإحنا مشغولين برمي المسئولية على بعض.. ده مش حل"
خيم الصمت على الجميع، فأكمل هو حديثه:
ـ "من قبل ما يبقوا دولة وسينا بشمالها وجنوبها بالنسبة ليهم حجر الزاوية اللي بيكمل بناهم.. سانت كاترين في جنوب سينا مش بيعتبروها مزار.. دي أرض مقدسة.. فيها بداية الرسالة اليهودية، وبداية كلام الله مع سيدنا (موسى).. والتجلي الوحيد لرب الأرض على الأرض كان فيها.. وعلشان الطريق يكون مفتوح قدامهم لسانت كاترين لازم شمال سينا تكون غير خاضعة للسيادة المصرية.. تكون أرض محايدة يدخلوا ويخرجوا فيها

براحتهم.. مفكرتوش قبل كده الصواريخ اللي منصوبة في الجبال ليه تضرب ناحية الجنوب مش ناحية الشمال والمسافة تكاد تكون واحدة؟؟ إيه الأحسن يضربوا مسلمين مقصرين في دينهم -من وجهة نظرهم- ولّا يهود بينجسوا المسجد الأقصى كل يوم؟"

تنهد، وأحنى رأسه مردفًا:

- "اللي إحنا فيه خطر حقيقي مش على سينا بس.. على مصر كلها.. متهيألي ده سبب كافي نبعد أزماتنا مؤقتًا.. مش بقول ننساها، لكن نبعدها ولو لفترة علشان مصلحة البلد"

رفع رأسه مرة أخرى يتأمل وجوههم الصامتة.

- "أنا عندي طلبين.. الطلب الأول: مرشد يكون حافظ مسالك الجبال والشقوق اللي بيكونوا مستخبيين فيها"

سأل الشيخ (راشد) في ترقب:

- "إنتوا خلاص نويتوا يا باشا؟"

هز القائد رأسه قائلًا:

- "المواعيد وكيفية الهجوم لسة موصلتش من القيادة.. لكن أتوقع هيكون قريب"

- "عندي الدليل اللي طلبته"

- "عظيم.. الطلب التاني يخص كل قبايل رفح"

ثم أدار عينيه في وجوههم:

- "وصلتني أخبار إن رحلات السفاري لسة بتتنظم مع إن إحنا إتكلمنا في الموضوع ده أكتر من مرة"

قلب الرجل طاعن السن كفيه:

- "لمين يا باشا؟ ماعاد في سياح بيخطوا رفح من مدة"

ـ "بعض الشباب القاهري مش مقدرين خطورة الموقف في سينا يا شيخ (مسعود).. وجب علينا نفهمهم، ونمنع رحلات السفاري نهائي الفترة دي على الأقل.. إحنا مش ناقصين مشاكل أكتر من اللي عندنا"

ثم التفت إلى الشيخ (راشد)، وهو يلمم أوراقه:

ـ "الدليل هيكون جاهز إمتى يا شيخ (راشد)؟"

ـ "من اليوم لو حبيت"

نهض القائد، ومعه نهض الشيوخ:

ـ "هبلغ القيادة، وأنسق معاك"

*****

بعد أيام قليلة، كانت الطائرات الحربية تدك مواقع بعينها على الجبل، ما أرشدهم إليها الدليل (حماد) الذي يعرف مسالك الجبل كخطوط يده، بينما وقف ضابط الجيش ذو الرتبة الكبيرة أسفل الجبل وسط رجاله صارخًا:

ـ "هنمشط الجبل مشاة بعد الطيران.. هنكون ورا الدليل تلات مجموعات.. المجموعة القلب، ودي اللي هكون فيها.. مجموعة اليمين، وهيبقى على راسها المقدم (عبد العزيز).. ومجموعة الشمال هيكون قائدها الرائد (شريف).. أي سؤال يا رجالة؟"

هز الجميع رؤسهم في حزم، فهتف:

ـ "يللا ربنا معانا.."

ظل يستمع إلى الجهاز اللاسلكي لفترة، قبل أن تأتيه إشارة الهجوم عبره، فانطلق هو ورجاله ناحية الجبل يسبقهم (حماد) ضئيل الجسد.. استمروا لدقائق يسيرون في طرق الجبل الوعرة، وهم يرفعون أسلحتهم أمام أعينهم في تحفز، حتى صرخ قائدهم فجأة:

ـ "انبطح! انبطح!"

قفزوا محتمين بالصخور البارزة، عندما مر فوق رؤسهم صاروخ متوسط الحجم انفجر بالقرب منهم، فأطاح بعدد ليس بقليل، وقذف الصخور المتناثرة على أجساد الباقين، رفع قائدهم رأسه، فلم يجد أثرًا لـ(حماد)، فصرخ:

ـ "فين الدليل!؟ فين الدليل!؟"

في اللحظة التالية، ظهرت أعداد كبيرة من الرجال الملثمين متشحي السواد من داخل شقوق الجبل، وكأنهم ظهروا من العدم، يحملون بنادق آلية وأسلحة أخرى ثقيلة، وأمطروا المصابين من رجال الجيش بكافة أنواع الذخائر، والذين نهضوا يفرغون خزائن أسلحتهم في أجساد المهاجمين حتى قاربت على النفاد.. فالتفت قائدهم إليهم، وهتف:

ـ "اتشاهدوا يا رجالة.."

وما أن رددوا الشهادة وراءه، حتى سقط صاروخ آخر وسط تجمعهم، فأطاح بالجميع.

*****

في فجر اليوم التالي، مر طابور طويل من السيارات المكشوفة رباعية الدفع في طرقات رفح، فوق ظهورها وقف الرجال الملثمين يحملون بنادقهم وشرائط الذخيرة على أكتافهم في استعراض واضح، المدافع الثقيلة تعلو بعض السيارات، وربما اعتلاها الرجال في زهو.. كل من مرت عليه العربات من الأهالي ترك ما كان يفعله ووقف قائمًا، كانت العربات تسير ببطء واضح، وقد أحس الناس أن موسيقى حزينة تخيم على المكان الذي يمرون منه.. يمرون على الشيخ (راشد) الذي كان يفتح صندوق الأسلحة الخشبي الضخم، ويتأمل مافيه بعين راضية، ثم يلتفت إلى الرجل الملثم بجواره

يصافحه في قوة، سمع صوت تحركهم خلفه، فمد يده إلى داخل الصندوق، وأمسك بقطعة من السلاح الآلي، ورفعها أمامهم محيياَ.

يمرون على عجوز تضع البرقع المزركش على وجهها، تجلس بجوار القربة الجلدية المعلقة التي تحوي القليل من اللبن، تهزها بقوة جيئة وذهاباً، تعمل بكامل طاقتها لتتحصل على ما يسد حاجة عائلتها بالكاد، فبعد أن توقفت حركة السياحة وزوجها يجلس في البيت ملومًا محسورًا، تذهب هي بالجبن واللبن إلى مدينة الشيخ (زويد) التي ربما أسوأ حالًا منهم في هذا الحصار، ولكنها تستطيع أن تبيع فيها ما تحمله للسكان هناك، وتبتاع ما يلزم تجارتها الصغيرة يوما بيوم.

يمرون على أطفال يلعبون الطاق (طاق طاقية)، يتحلقون بجانب بعضهم على شكل دائرة، ويركض أحدهم حولهم خارج الدائرة ممسكًا بالمنديل' وهو ينشد: ـ "طاق طاق طاقية.. طاقيتين بعلّية.. والدبة طاحت بالبير.. وصاحبها واحد أمير".. ثم يلقي بالمنديل وراء أحد الأطفال الجالسين، قبل أن يقوم من يلعب دور ساعي البريد، ليركض منشدًا: ـ "رن رن يا جرس.. واللي عنده مصرية.. رن رن يا جرس.. يشتري فيها قضامية".. محاولًا الجلوس مكان من سقط المنديل خلفه قبل أن يمسكه هو أولًا، كانوا يلعبون وتتعالى ضحكاتهم البريئة، عندما حضرت امرأة إلى مكانهم، وجذبت إحدى الفتيات من شعرها، وهي تصرخ متسائلة عن عدد المرات التي أخبرت فيها طفلتها ذات العشرة أعوام أن مثل هذه الألعاب لم تعد تناسبها، متوعدة الطفلة أن زواجها من ابن عمها لن يؤجل عن اليوم التالي على أقصى تقدير.. فجأة صرخ أحد الرجال من فوق السيارة إلى ما وراء أحد البيوت:

ـ "عسكري! عسكري جيش!"

قفز الرجال من السيارة التي تحملهم في الاتجاه الذي أشار إليه، بينما أكمل باقي الموكب طريقه.. جروا حتى وصلوا إلى ما خلف البيت المتواضع، وهم يشهرون أسلحتهم، فلم يجدوا أحدًا، بحثوا في كل ركن من المكان، حتى ظنوا أن زميلهم قد خُيل إليه، فقفلوا راجعين إلى سربهم.. وراء أحد الأبواب الخشبية للبيوت المتراصة، وقف (نزار) واضعًا كفه فوق فم الجندي، وقد أمسك ماسورة بندقيته في قوة، فلما اطمأن لذهابهم رفع كفه في بطء من على شفتي الجندي، وقاده عبر ساحة البيت إلى باب على الجانب الآخر من الطريق، ثم دفعه إلى الخارج دون أن ينطق بكلمة واحدة.

*****

اقترب (نزار) من أسوار المعسكر عندما أوشكت الشمس على المغيب، رفع المجندين فوهة بندقيتهما ناحيته وهما يصرخان فيه أن يتوقف، في حين تقدم هو في خطوات ثابتة ناحيتهما، وما أن سقط ضوء الكشاف العملاق المثبت على سطح المعسكر على وجهه، حتى أمسك أحدهم بماسورة بندقية الآخر هاتفًا:

ـ "نزل السلاح.. ده اللي أنقذني الصبح، وحكيتلك عنه.."

ظل الآخر رافعًا سلاحه في توتر، يرقب خطوات (نزار) الواثقة، حتى توقف على بعد خطوات منهما..

ـ "نزل سلاحك قولت.. ده معانا مش علينا.."

تعرقت يدا المجند الممسك بالسلاح، وبدل بين قدميه في توتر:

ـ "ارفع سلاحك يا (عوض).. ده عرباوي.."

ابتسم (نزار) في سخرية، وهتف:

ـ "اسمع كلامه يا (عوض).. صوب بندقتك على صدري.. أنا مش مصري"

ارتبك (عوض) عند سماعه الجملة الأخيرة، واعتصر مسند سلاحه دون أن يرفعه:

ـ "مش مصري كيف؟"

أخرج (نزار) علبة سجائره، وأشعل إحداها في بطء رغم تحذير المجند الآخر:

ـ "إنت صعيدي؟"

تبادل (عوض) النظرات مع زميله في قلق دون أن يتكلم.

ـ "أنا جاي أقولك كلمتين وماشي.. أنا مابعرف كنت بتسوي إيش وحدك الفجر في هادي المنطقة.. لكن لازم تعرف إن هادي منطقة خطرة حتى بالنسبة لإلنا.. ما ينفع تنزلها لوحدك بعد الحين.. فهمتني؟"

ـ "ماكنتش قادر أقعد في المعسكر بعد اللي حصل إمبارح.. دمي كان بيغلي.."

ثم تطلع إلى عيني (نزار) رغم المسافة بينهما:

ـ "إنت كمان تلاقي دمك كان بيغلي زيي"

جمدت ملامح وجه (نزار) للحظات، قبل أن يلقى سيجارته على الأرض ويطأها، ثم يدور على عقبيه مبتعدًا، عندما هتف (عوض):

ـ "ما هتحبش جيش بلدك إياك؟"

دون أن يتوقف هتف:

ـ "الجيش هو اللي مو بيحبني"

*****

نزل ضابط الجيش الشاب من سيارة الجيش المصفحة أمام أكبر الخيام المنصوبة، أشار للسائق المجند أن يظل في مكانه، ثم تلفت حوله يمينًا ويسارًا، قبل أن يخطو ناحية الخيمة في خطوات واسعة، أحنى رأسه و

دلف إليها، فوجد ثلاثة شيوخ جلسوا كأنهم في انتظار حضوره، وقف وراءهم شابان مشدودا القامة، أشار الشيخ (مسعود) إلى الضابط بالتقدم إلى أحد الوسائد المرتبة أرضًا، فجلس وعيناه معلقتان على الشيوخ الثلاثة.

- "شايف إن رسالتي وصلتك يا شيخ (مسعود).."

- "وصلت.. لكن ما فهمت منها إشي.."

اعتدل الضابط في جلسته قائلًا:

- "أنا مفوض من قائد المنطقة العسكرية شخصياً للاجتماع بيكم علشان أعرف بالظبط إيه اللي حصل في عملية الهجوم اللي كانت من يومين.. وليه جثة الدليل ماظهرتش مع باقي الجثث؟"

بصوت واهن تكلم الشيخ (مسعود):

- "جثة الدليل لا يمكن تكون معهم.. لإنه مازال حي يرزق.."

قالها وهو يشير بذراعه إلى أحد الشابين الواقفين، فأزاح الستار في جانب الخيمة، ليظهر (حماد) مقيد الوثاق في حالة مزرية، وقد سِد فمه بقطعة قماش عريضة..

أشار الضابط إليه وهو يتأمله:

- "مين ده؟"

- "(حماد) الدليل.. إتكلم معاي، وحكالي كل إشي.. قالي مين حرضه يغدر بالرجال وبأهله من قبلهم، وكيف أغراه بالمال.."

حانت من الشيخ (راشد) نظرة خاطفة ناحية (حماد) في توتر، بينما نهض الضابط في سرعة:

- "مشكور يا شيخ (مسعود).. إحنا هنكمل معاه التحقيق في المعسكر.."

أشار إليه الشيخ (مسعود) أن يجلس مرة أخرى:

- "إجلس يا ولدي.. إجلس.."

انتظر حتى استقر الضابط في مكانه ثانية في توتر:
ـ "أنا ما أقدر أسلمك (حماد) دون علم القيادة تبعك.."
فتح الضابط فمه ليتكلم، فأسكته الشيخ (مسعود) بإشارة من كفه:
ـ "أنا بعرف إنك هنا الحين دون علم قيادتك.. قتل إخوانك الشجعان حرك المرؤة جوه قلبك، وبدك تعرف -إنت وإخوانك- مين السبب في موتهم.."
قاطعه الضابط في حزم:
ـ "استشادهم.."
هز الشيخ رأسه في تفهم، وتابع ببصره أحد الشابين وهو يصب القهوة في (فنجال) صغير، ويناوله للضابط الذي أمسك به قائلًا:
ـ "عارف يا شيخ (مسعود).. في المعسكر الظباط والمجندين عندهم شعور واحد مسيطر عليهم.. إنتوا جزء من المشكلة إن ماكنتوش كل المشكلة.. واللي يكون جزء من المشكلة عمره ما يكون جزء من الحل.."
قالها وهو يرفع (الفنجال) ويصب ما فيه من القهوة على الأرض في بطء..
انقلبت الخيمة إلى ساحة قتال فجأة، وهمّ كلا الشابان باخراج سلاحيهما من حزام الخصر، لولا أن أوقفهما الشيخ (مسعود) بإشارة من كفه في صرامة، وصار صوته أكثر وهنًا، وهو يقول:
ـ "ما فعلته يا ولدي إهانة كبيرة في عاداتنا.. وسواء كنت تقصد أو لا.."
قاطعه الضابط الشاب للمرة الثانية، وهو ينهض في حزم مغادرًا الخيمة:
ـ "أقصد.. ومن النهاردة اتعاهدنا أنا وزمايلي اللي هيشوف عرباوي ناحية مخازن السلاح هيضرب عليه نار بدون تحذير.."

*****

بعدها بيومين اختفى الشيخ (مسعود) من أرض رفح كلها، بحثوا عنه في كل مكان، فلم يجدوا له أي أثر أو دلالة ترشدهم إلى سر هذا الاختفاء

المفاجئ..
قام الشيخ (راشد) صارخًا في الناس أنه يشم رائحة الحكومة في ما قد حدث للشيخ (مسعود)، وأن خلافاته مع قادة الجيش زادت عن حدها في الفترة الأخيرة، ما قد يدفعهم للتخلص منه اعتقالًا أو قتلًا، وأنه لا يستبعد وقوع أي منهما للشيخ.
تجمع أهالي رفح في غليان، وسار الرجال صفوفًا حتى بوابة معسكر الجيش هاتفين:
ـ "الحرب دايرة، والعدو ع الحدود.. والحل كتم صوتك يا شيخ (مسعود).."
توقف جمعهم أمام الحواجز الحديدية التي وُضعت على مسافة بعيدة عن البوابة ومازالوا يهتفون، وقد اضطرب المجندان الواقفان في الخدمة أمام أعدادهم الكبيرة، حتى خرج إليهم الضابط المسئول هاتفًا في توتر أنه مثلهم، ليس عنده أي معلومات عن الاختفاء المفاجئ للشيخ (مسعود)، فصرخوا جميعًا مقسمين أنهم لن يفضوا وقفتهم حتى يخرجوا لهم الشيخ (مسعود) من داخل المعسكر، أو على الأقل يبلغوهم بمكانه.. على بعد خطوات من الحاجز، وقف (نزار) عاقدًا ساعديه فوق صدره، يتابع ما يحدث في صمت، عندما سمع صوتًا يهمس إليه من خلفه:
ـ "ليه المرة اللي فاتت قولتلي إنك مش مصري؟"
استدار وهو يحمل ابتسامته الساخرة التي لا تفارقه.. على مسافة عدة أمتار كان (عوض) مرتديًا خوذته، ويحمل سلاحه على صدره، واقفًا خلف الحاجز.
ـ "هو السيناوي مش مصري؟"
اقترب (نزار) من الحاجز الحديدي، وجلس أمامه وهو يقول:
ـ "ده اللي بتقوله الحكومة.. والمكتوب في بطايقنا"

ارتبك (عوض) في وقفته، فاتسعت ابتسامة (نزار) الساخرة:

ـ "حطها حلقة في ودنك.. ما تصدق كل اللي تقوله الحكومة.. ما تصدق منه إشي من الأساس.. بلدك وجنسيتك يا (عوض) ما حدا يقدر يسحبهم منك بقرار ولو فعل الأفاعيل.. بلدك وجنسيتك هون"

وأشار إلى صدره.

ـ "مثل دينك.. تعيش بيه وتموت بيه"

نزل (عوض) على ركبتيه في بطء، ونظر إلى (نزار) من وراء الحاجز:

ـ "أومال ليه حسيت إنك مش زعلان على الرجالة اللي ماتت؟"

ـ "زعلان على مصريين بيموتوا غدر.. لكن يا (عوض) بينا وبين الحكومة جبال ما تنزاح بسهولة.. الحكومة بتظلمنا مثل ما فعلت اللي قبلها واللي قبلها.."

ـ "كيف؟"

أخرج (نزار) علبة سجائره، ورفعها أمام وجهه:

ـ "بتدخن؟"

وضع (عوض) كفه على صدره قائلًا:

ـ "كنت.. قبل ما تشبط في صدري الحساسية"

ابتسم (نزار)، وأعاد السيجارة التي كان قد وضعها بين شفتيه إلى العلبة، فأردف (عوض) وهو يمد يده عبر الحاجز:

ـ "لكن هعفر معاك.. مموتناش من فيروس الكبد اللي بياكل في حشانا.. هنموت من شوية كحة؟"

تأمل (نزار) وهو يضع إحدى السجائر بين أصابعه، ويقترب منه ليشعلها:

ـ "تصدق لحد دلوك معرفش اسمك.. مع إنك عارف اسمي وبتناديلي بيه.."

ـ "(نزار).. (نزار الرشيدي)"

ـ "قولي يا (نزار).. أنا ليه مابشوفش حد من شباب سينا بيخدم معانا؟"
أعاد (نزار) قداحته إلى جيبه، ثم اعتدل في جلسته:
ـ "هادا من ظلم الحكومات اللي بحكيلك عنه يا (عوض).. وللموضوع قصة حتى كتير مننا في ظني ما يعرفوها.. (محمد علي) باشا لما كان بيحكم مصر حاول يخطب ود العرباوية، فأعفى شبابهم من التجنيد الإجباري.. جه من بعده الخديوي (سعيد)، وحصل مشاكل بينه وبينهم، فطبق عليهم نظام التجنيد الإجباري من جديد.. بعديه كان الخديوي (إسماعيل) أصدر قراره الملكي بإعفاءهم من التجنيد تاني.. جه بعده الخديوي (توفيق)، وكان العرباوية بقى فيهم قبايل كبيرة، وليها سلطة على القبايل الصغيرة، فطلع قراره إن التجنيد يكون من القبايل الضعيفة بس.. غير كده ياخد إعفا.. دخلت القبايل الصغيرة في القبايل الكبيرة، والإعفا من التجنيد بقى لكل العرباوية اللي إتركز معاشهم في سينا شمالها وجنوبها حتى الحين"
اقترب شاب مستقيم الجسد من مجلسهما، وانحنى على (نزار)، فبش في وجهه عندما رآه.
ـ "يا هلا بابن العم"
ـ "ما تنسى اليوم موعد العقبى يا (نزار)"
وضع (نزار) كفه على كتف الشاب مطمئنًا:
ـ "أبشر بالخير يا ابن العم"
ـ "الله لا يهينك"
انصرف الشاب، والتفت (نزار) إلى محدثه الذي عقد حاجبيه في جدية:
ـ "كأني بتفرج على فيلم أجنبي من غير ترجمة.. إيه العقبى ده؟"
ضحك (نزار) حتى أرجع رأسه إلى الوراء:

ـ "العقبى هذا مثل ما تقولون عندكم قاضي الأحوال الشخصية.. وهذا ابن عمي.. (نجاح).. أخته تريد الطلاق من زوجها.."

ـ "طيب ما تقول لأبوها وحكم من أهله ومن أهلها زي ما الدين بيقول.."

هز (نزار) رأسه في قوة:

ـ "هون لما تريد المرأة تطلق تذهب إلى قريب لها عدا أبوها.. فيتطوع بالذهاب بها للعقبى اللي يحاول يصلح بينها وبين زوجها.. ويلزمه ببضع نعجات وغربال ورحاية.. وإنه يقيم لها خيمتها بين أقاربها.. فإذا لم ترضى يتم الطلاق"

نفث (عوض) دخان سيجارته في شرود:

ـ "مش هترضى ليه بعد ده كله.. ده ناقص يجيب لها زير ببابين"

وكزه (نزار) في كتفه عبر الحاجز، واستلقى على ظهره يضحك.

*****

عند حلول الليل، جاءت بعض النسوة تجري ناحية حاجز المعسكر وكن يصرخن، يقلن أن عدد كبير من الرجال يرتدون زي الجيش حضروا إلى الخيام، ومزقوا بعضها، وأشعلوا النيران في البعض الآخر، فقام الرجال يهرعون إلى حيث تركوا أبناءهم وأهليهم، يأملون في إنقاذ ما يمكنهم الوقت من إنقاذه.. داخل المعسكر لم تكن الأمور بأفضل من خارجها، عندما وردت الأنباء من عدة نقاط تفتيش قريبة تؤكد الهجوم عليها بواسطة رجال يرتدون الزي المميز لبدو سيناء، وأن الهجمات المتعددة أسفرت عن عدة شهداء من رجال الجيش.. في مكان آخر وسط الجبال المحيطة برفح، كان بعض الرجال يرتدون ملابس الجيش مسرعين، يعاونهم على ارتدائها آخرون يرتدون الزي البدوي التقليدي، الجلباب الأبيض من

فوقه سترة قماشية داكنة اللون، وكانوا يخطفون السلاح المرتكن إلى الحائط قبل أن يعدوا خارجين.

في ركن المكان الذي تحول إلى خلية نحل، وقف رجل مفرود القامة، شبك كفيه خلف ظهره وهو يرى الرجال الوثّابين هنا وهناك، بجانبه وقف الشيخ (راشد) وهو يفرك يديه:

ـ "خطة عبقرية.. أستاهل عليها زيادة حصة السلاح من عندي"

التفت إليه الرجل في حدة، فتراجع خطوة إلى الوراء، قبل أن يبتسم الرجل في هدوء:

ـ "خذ ما يكفيك من المال يا شيخ (راشد).. الدفعات الجديدة وصلتنا بالأمس.. المال ماهو إلا وسيلة.. أما نحن فتملكنا غاية.."

ثم أشار إلى الرجال أمامه قائلًا في صوت قوي:

ـ "وما تراه الآن هو بداية تحقيق الغاية.. البداية فقط.."

*****

قبيل فجر اليوم التالي، خرج الشيخ (راشد) من خيمته، وأشار إلى الرجال المتجمعين خارجها، حاملين أسلحتهم الآلية، فقفزوا على ظهور السيارات المكشوفة، التي انطلقت بهم على الفور مثيرة وراءها عاصفة من الرمال.. استيقظ (نزار) من نومه على صوت السيارات التي تئن من ثقل حمولتها من الرجال، خرج من خيمته مسرعًا، فأعمت عينيه الرمال المتطايرة، غطى وجهه بكفه، وصرخ:

ـ "ما خدت بكلامي يا شيخ (راشد)! ما سمعت كلامي من الأصل!"

لف كفيه حول فمه، وصرخ بأقصى قوته:

ـ "بحور الدم اللي هتكون في رقبتك يا شيخ!!"

لم يبد على الركب أنهم سمعوا صيحاته، دار حول البيت، فلم يجد أثرًا لسيارته، جرى في الاتجاه الذي سلكته السيارات منذ قليل وهو يطلق صرخات غاضبة.
بعد دقائق كانت السيارات بحمولتها من الرجال على بعد أمتار من الحاجز الحديدي أمام المعسكر، انهمر المطر الرصاصي على رؤوس الجنود، فردوا بافراغ رصاصاتهم على القادمين، وتراجعوا للاحتماء بالحوجز الخرسانية أمام البوابة.
كان (نزار) يجري وقد شق طرف جلبابه فبدا سرواله الأبيض الواسع من تحته، يجري كما لم يفعل من قبل.
قفز المعتدون من على ظهور السيارات إلى الأرض، وداروا حولها في سرعة وقد اتخذوها ساترًا، ألقى أحدهم بقنبلة بعد أن نزع فتيلها بأسنانه، فانفجرت مطيحة بأحد الحواجز الأسمنتية، ومن إستتر بها.
كان (نزار) يجري وهو يلهث في قوة، تسقط قدمه داخل إحدى الحفر الرملية، فيتعثر متدحرجًا على الأرض، ثم ينهض من جديد، ليزيد من سرعة عدوه.
باقي الجنود والضباط كانوا يخرجون من بوابة المعسكر، وهم يطلقون الرصاصات من أسلحتهم في غزارة، وحلقت طائرة حربية على مسافة منخفضة فوق الرؤوس، فتراجع المعتدون إلى التبة القريبة من سيارتهم ليحتموا بها.
كان (نزار) يجري وهو يسمع صوت إطلاق الرصاص المتبادل حتى ظهرت السيارات الرابضة من بعيد.. دفع جسده دفعًا حتى وصل إلى ساحة المعركة وقفز إلى داخلها، انحنى متفاديًا الرصاصات المارة فوق الرؤوس، جرى في خط متعرج، ثم تدحرج على الأرض حتى امتلأ جسده بالسحجات،

نهض محتمياَ بأحد الحوائط المنهدمة، وتلفت حوله بحثًا عن (عوض) حتى رآه، وقد ارتمى بين جدارين سقطا مستندين على بعضهما البعض، كان يمسك بإحدى قدميه وقد كانت تنزف في غزارة، جرى ناحيته والرصاصات تتساقط حوله كليلة شتاء ممطرة، انفجرت بالقرب منه إحدى القنابل، فحملته عن الأرض بعيدًا، قام من سقطته وقد اصطبغ جلبابه الأبيض بلون الدم القاني، سمع هتافات البعض:

ـ "هادا (نزار).. غطوه!"

انطلق سيل الرصاصات من ورائه يؤمن له الحماية، حتى وصل إلى مكان (عوض)، فقفز إلى الداخل.. انحنى متفحصًا ساقه المصابة، ثم إلتفت إليه هاتفًا:

ـ "الرصاصة خرجت.. ما تقلق"

تأمله (عوض) في جزع:

ـ "إيه اللي عمل فيك كده؟"

خلع (نزار) عباءته في سرعة، وصوت الانفجارات في الخارج يصم الآذان، صرخ في (عوض):

ـ "الناحية هادي القبايل مسيطرة عليها.. مافي حل لخروجك سالم غير إنك ترتدي ملابسي، فيفتكروك أنا، ويسيبوك تعدي.. وبعديها ترجع زي ما أنا جيت"

هتف (عوض) وهو يعتصر ذراعه:

ـ "وإنت؟"

ـ "أنا هخرج بعدك بشوي وأنا مبين وجهي، وأكيد هيعرفوني.. يللا!"

هز (عوض) رأسه في قوة:

ـ "مستحيل أسيبك هنا.."

مد (نزار) يديه يحل أزرار سترة (عوض) من على جسده:
ـ "مافي وقت.. يا عالم الجدارين دول هيفضلوا ساندين بعض لحد متى.. والعركة مش هتوقف الحين"
بدل كل منهما ثيابه مع الآخر في سرعة، ثم أمسك (عوض) ذراع (نزار)، وهو ينظر إلى داخل عينيه، فدفعه (نزار) إلى الخارج في قوة هاتفًا:
ـ "مش وقته.. ما تنسى توطي راسك حتى لا يتبينوك"
خرج (عوض) من مخبأهما وقد رفع كفه ملوحًا، وأحنى رأسه، فتوقفت زخات الرصاص من حوله، وقبل أن يخطو خطوة أخرى مرت الطائرة الحربية على مكانه ملقية صاروخ على مقربة منه، قذف به انفجاره خطوات إلى الداخل، فتلقاه (نزار) بين ذراعيه، قبل أن يشعر بانهيار الجدار ناحيتهما، فخرج عدوًا وهو يحمل (عوض) على صدره، وما أن رآه البدو مرتديًا زي الجيش، وقد حجب جسد (عوض) وجهه، حتى أطلقوا مخزون أسلحتهم بغزارة مخترقًا جسده..
سقط (نزار) متشبثًا بجسد (عوض) الذي سقط فوقه، وابتسم بجانب شفيتيه ببطء، فنظر (عوض) إلى وجهه بطرف عينه، وابتلع ريقه في صعوبة:
ـ "بتضحك على إيه يا ولد عمي؟"
تكلم (نزار)، والغصة تغالب كلماته في حلقه:
ـ "كنت فاكر الجيش ما بيحبني.. طلع ما بيحب ملابسي"
صاروخ آخر سقط أقرب من سابقيه، فهجمت نيرانه على جسديهما المستسلمين.

*****

كانت جنازة (نزار) العسكرية مهيبة، التف جسده بالعلم الوطني، وسار

محافظ قنا وقيادات من الجيش وراء النعش الذي يحمل جثمانه، وعلت صرخات النسوة المتشحات بالسواد، حتى وصلوا إلى المقابر، ووضعوه في مرقده الأخير.. في حين حمل أهالي رفح جثمان (عوض) المتفحم في صمت، والنساء تولول وهن يضعن كفوفهن على شفاههن، قبض (نجاح) على طرف النعش في قوة، وأغمض عينيه ودموعه تغالبه، اليوم يطمئن على نومة ابن عمه الأخيرة، وغدا يتحالف مع من يستطيع أن يأخذ له بثأره.

** ** **

(٧)

رفع الرجل كفه أمام وجه (يحيى) مستوقفًا:

ـ "قبل أن تخوض في تفنيد مزاعمي في الجهاد كما قلت.. هل تتفق معي أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نبيًا خاتمًا بعثه الله بالسيف لنشر دينه؟"

هز (يحيى) رأسه متحسراَ:

ـ "لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. يقول رب العالمين في كتابه عن رسوله الكريم: ـ "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين".. أي رحمة للجن والإنس مسلمهم وكافرهم.. وقد قال العلماء في تفسير هذه الآية أن من دخل في الإسلام واستقام على الدين صارت الرحمة في حقه أكثر وأكمل، ومن لم يدخل في دين الله نال من الرحمة بقدر ما حصل له من الخير من غيث وأمن ورزق واسع بأسباب هذه الرسالة، ومن أمنه في بلاده بالعهود والمواثيق التي بينه وبين المسلمين إلى غير ذلك من أنواع الرحمة.. ولكنكم رغمًا عن ذلك تريدون تبديل الرحمة إلى حرب.."

أشار إليه الرجل بسبابته في غضب:

ـ "فماذا تقول في حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ـ "بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يُعبَد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم"؟ وهو حديث صحيح، وأقل ما قيل فيه أن اسناده حسن.."

هز (يحيى) كتفيه قائلًا:

ـ "لن أجادلك في صحة الحديث، فأنا أراه حديثًا صحيحًا علق البخاري في صحيحه بعضه.. وهذا الحديث الشريف بالذات يعاب عندكم فهمه لا اسناده.. فإن انتشار الإسلام كان بأسباب شتى، منها ما كان بالدعوة

بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالقدوة العملية من خلال أخلاق المسلمين في معاملاتهم وتجارتهم، وغدوهم ورواحهم.. ومنها ما كان بعرض الإسلام على الملوك والزعماء من خلال الرسل والرسائل.. ومنها ما كان بتوجه الجيوش للبلدان، لعرض رسالة الإسلام على أهلها، وكانوا يخيرون بين أمرين: إما أن يدخلوا في الدين طواعية، ولهم حينئذ ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم.. أو أن يبقوا على دينهم وإدارتهم لديارهم على أن يدفعوا الجزية للمسلمين.. أي أن السيف كان فقط وسيلة لدخول البلاد التي تمنع دخول المسلمين، لعرض تعاليم الإسلام، بعدها يطبق المسلمون ما جاء في الآية الكريمة:ـ "وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر""

حك الرجل ظهر يده في توتر قائلًا:

ـ "إذن أنت من المتجملين بقول أن الإسلام انتشر بالطريق السلمي، ولم ينتشر بالسيف! وأن الجهاد ليس فريضة على المسلمين!"

هز (يحيى) رأسه نفياَ، وهو يقول:

ـ "أما من ناحية الجهاد، فهو فرض كفاية على المسلمين، وقد يصير فرض عين على مسلمي منطقة معينة إذا أعلن الحاكم النفير العام.. والهبّ للجهاد في زمننا هذا يلزمه إذن ولي الأمر بالضرورة.. فإذا جهز ولي الأمر جيشًا لنصرة المسلمين، فلينضم إليه القادر على الجهاد.. وأما من ناحية انتشار الإسلام بالطريق السلمي، وأنه لم ينتشر بحمل السلاح، فهو واقع وحقيقة، فعندما اضمحل السلطان السياسي للمسلمين، ووطأ فيها الكفار من المتبربرين، بأقدامهم أرض الإسلام على يد الأتراك السلاجقة في القرن الحادي عشر، والمغول في القرن الثالث عشر، في كلتا الحالتين نرى الغزاة الفاتحين يعتنقون ديانة المسلمين المغلوبين، ولما جاء الصليبيون في حملات متعاقبة دخل كثير منهم في الإسلام.. ثم حمل دعاة المسلمين عقيدتهم إلى

كل أنحاء الدنيا.. وكان النبي يجعل من مواسم الحج فرصة لنشر الدعوة بين شتى القبائل التي كانت تتدفق إلى مكة وما جوارها من الأسواق، وكان من بينهم وفود المدينة المنورة الذين فتح الله قلوبهم للإيمان، واستمعوا إلى داعي الحق.. كما أنه صلى الله عليه وسلم كان يذهب إلى بعض القبائل، ومنها القبائل الموجودة في الطائف على بعد سبعين ميلًا من مكة، وكان كثير منهم قساة غلاظًا، قابلوا الدعوة بالسخرية.. وكثيراً ما كان يفد أحد أفراد القبائل على النبي بالمدينة، ثم يعود إلى قومه داعيًا إلى الإسلام جاهدًا في تحويل إخوانه إليه.. ومن أمثلة ذلك (ضمام بن ثعلبة) الذي بعثه قومه رسولًا إلى النبي، فقدم عليه، وسأله، وأغلظ في السؤال، وجادل أيما مجادلة، ولم يقم من مقامه إلا بعد أن لفظ عبادة الأوثان، وآمن بالله وحده، وشهد برسالة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأسرع إلى قومه، ومازال يقص عليهم، ولم يأتِ المساء إلا وقد أسلم كل من في الحي رجالًا ونساء.. و(طفيل بن عمرو) مندوب قبيلة بني دوس الذي دخل الإسلام في حماسة شديدة بعد اجتماعه بالنبي، وعاد إلى أهله، وأفلح في إدخال والده وزوجته في الإسلام، ولكن قومه لم يستجيبوا له، فعاد (طفيل) إلى النبي، وقد استولى عليه اليأس مما أصابه من إخفاق، وطلب أن يستنزل النبي لعنة الله على بني دوس، ولكن النبي شجعه على المثابرة في دعوتهم بقوله: ـ "ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم".. وفي الوقت نفسه دعا لهم النبي قائلًا: ـ "اللهم اهدِ دوسًا".. ونجح (طفيل) هذه المرة، ودخل بنو دوس في الإسلام.. وغير ذلك كثير من الأمثلة التي تؤكد انتشار الإسلام سلمياً، وليس بحد السيف كما يزعم البعض وتزعمون.."

فرد الرجل كفيه أمامه قائلًا:

ـ "فإذا سلّمت بتفسيرك لحديث السيف.. فماذا تستطيع أن تقول في حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لكفار قريش: ـ "لقد جئتكم بالذبح"؟"

تكلم (يحيى) في هدوء:

ـ "أولًا: لابد أن نبين الواقعة، لأنها تشرح نفسها.. قال (يعقوب): ـ"حدثنا أبي عن (ابن إسحاق)، قال: "وحدثني (يحيى بن عروة بن الزبير) عن أبيه (عروة) عن (عبد الله بن (عمرو بن العاص)) قال: "قلت له: "ما أكثر ما رأيت قريشًا أصابت من رسول الله فيما كانت تظهر من عداوته؟" قال: "حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يومًا في الحجر، فذكروا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: "ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سفَّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم".. أو كما قالوا: "قال: "فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفًا بالبيت، فلما أن مر بهم غمزوه ببعض ما يقول، قال: "فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى، ثم مر بهم الثالثة، فغمزوه بمثلها، فقال: "تسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح".. فأخذت القوم كلمته حتى ما فيهم رجل إلا كأن على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وطأة قبل ذلك ليرفؤوه بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: "انصرف يا (أبا القاسم)، فو الله ما كنت جهولًا.." فانصرف صلى الله عليه وسلم، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: "ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه".. فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله -صلى

الله عليه وسلم- فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، فأحاطوا به يقولون له: "أنت الذي تقول كذا وكذا -لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم– قال: "فيقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "نعم أنا الذي أقول ذلك".. قال: "فلقد رأيت رجلًا منهم أخذ بمجمع ردائه".. قال: "وقام (أبو بكر الصديق) -رضي الله تعالى عنه- دونه يقول وهو يبكي: "أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله!؟".. ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا بلغت منه قط.. ثانيَا: الحديث يشرح نفسه كما أخبرتك.. والحديث ليس على عمومه، ليقال إن الإسلام أو النّبي -صلى الله عليه وسلم- جاء بالذبح كما تزعمون.. بل جاء الحديث مفسرًا في بعض طرقه، مبينا أن المقصود بالخطاب صناديد قريش، وأئمة الكفر منهم كـ(أبي جهل) و(أبيّ بن خلف) و(عقبة بن أبي معيط) في سبعة نفر.. فالحديث مقيد بالذين آذوا الرسول فقط، وليس عامًا، وهو ما يسمى فقهيًا بحادثة عين.. ثم كيف يُفهم منها هذا المعنى الساذج بقطع رؤوس المخالفين، وقد قالها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو في أضعف حالاته البشرية دون سلاح، ودون مرافق يؤازره!؟ فلفظة الذبح عند العرب لا تفهم إلا في سياقها، ويؤكد هذا المعنى رواية (عثمان عند (أبي نعيم) في الدلائل بلفظه: ـ "أما والله لا تنتهون حتى يحل الله بكم عقابه عاجلا".. أي أن المقصود هو تخويفهم من عذاب الله تعالى"

مال الرجل بجسده ناحية (يحيى) قائلًا:

ـ "سأمر معك في متاهتك التي بنيتها بنفسك.. وأتحرى بقدمي أثر سير أقدامك عسى أن نصل إلى بُغيتك.. فاعتبر أنني قد اقتنعت بأن المسلم لا يُكفَر إلا بإقامة الدليل عليه.. أليس من الطبيعي في جهادي ضد الكفار أن يموت بعض المسلمون دون وقوع الذنب عليّ، وهذا بحكم فتاوى التترس؟"

نظر (يحيى) إلى داخل عينيه غاضبًا، وهو يقول:

ـ "ليس من حقك أصلًا أن تقتل رجلًا قدم إلى بلادك وقد استأمنك على نفسه وماله وعرضه، وإن كان كافرًا! طالما جاءك لا ينوي قتالك، فليس لك عليه سبيل.. يقول تعالى: ـ "وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون".. المقصود بكلمة استجارك في قوله تعالى أي استأمنك على حياته، فلا يحق لك إيذائه حتى يرجع إلى بلاده آمنًا.. أما فتوى التترس التي تشير إليها، وتحتجون بها دائمًا في تنفيذ عمليات القتل التي تقومون بها، وينتج عنها ضحايا من الأبرياء، فعنها أقول.. التترس هو أخذ الكفار رهائن من المسلمين معصومي الدم، وجعلهم ترسًا بينهم وبين المسلمين، حتى يكونوا حائط صد إذا رماهم إخوانهم المسلمون، فيصيبوهم، ولا تصل سهامهم للعدو، ومعلوم أن هذه المسألة تكون بدار الحرب، أو في ساحة المعركة بين جيشين متقابلين، لا بدار السلم أو في حال الهدنة أو المعاهدة.. وفي هذه الحالة اتفق الفقهاء على أنه يجوز رمي الكفار إذا تترسوا بالمسلمين أثناء القتال أو حصارهم من قبل المسلمين بالشرط الأهم.. وهو إذا دعت الضرورة إلى ذلك، بأن كان في الكف عن قتالهم انهزام للمسلمين والخوف على استئصال قاعدة الإسلام.. وقد أورد شيخ الإسلام (ابن تيمية) في فتواه أنه.. لهذا اتفق العلماء على أنه متى لم يكن دفع الضرر عن المسلمين إلا بما يُفضي إلى قتل أولئك المُتتَرس بهم جاز ذلك.. ويشترط أيضًا أن لا يكون التترس بالنساء والأطفال، فلا يجوز قتلهم في حالات الحرب.. لكن متى أصبح اغتيال المسلمين، وتفجير المباني فوق رؤوسهم، والغدر بهم، وقتل المعاهدين والمستأمنين تترسًا!!؟ ألا ساء ما تحكمون! وأين فكركم من قوله تعالى: ـ "فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم

المجرمين".. (سورة الأنعام).. وقوله تعالى: "قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين".. (سورة سبأ).. فانظر إلى قوله: "وإنا أو إياكم".. وهو أفضل ما قيل على وجه الإنصاف في إقامة الحجة بشهادة علماء اللغة، وأروع ما قيل في أدب المناظرة يحمل الخصم على مواصلة الحديث، والبحث من خلاله عن الصواب.. وأين أنتم من قوله تعالى: ـ "ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين" (سورة يونس)"

هتف الرجل في غضب:

ـ "كل ما أوردته من آيات منسوخة بنزول آية السيف، ولم يأخذ بها المسلمون بعد أن قويت شوكتهم، واجتمعت كلمتهم"

لوح (يحيى) بكفيه المقيدتين في انفعال:

ـ "الآية في سورة التوبة من قوله تعالى: ـ "فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم".. والتي يُطلق عليها آية السيف أو آية القتال.. وإنني لأعجب من تسميتها آية السيف رغم أن كلمة السيف لم تذكر في كتاب الله ولو لمرة واحدة.. لكنكم تصرون على تسميتها بهذا الاسم كما تصرون على أنها -وحدها- نسخت حوالي ١٢٤ آية من القرآن الكريم!!! وفي موضوع الآيات المنسوخة تجب وقفة كبيرة، لأنه أصبح مرتعًا لكل من يقرأ آية من كتاب الله، فلا يفهم معناها، ولا يريد أن يكبد نفسه عناء البحث.. يقول (جلال الدين السيوطي) في كتابه الاتقان في علوم القرآن عن (ابن الحصّار) يقول: ـ "إنما يرجع في النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو عن صحابي يقول: "آية كذا نسخت آية كذا".. ولا يعتمد في النسخ قول

عوام المفسرين، بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير نقل صريح ولا معارضة بينة.. وقد وصف (ابن الجوزي) في كتابه نواسخ القرآن القائلين بأن هذه الآية قد نسخت كل آيات الرحمة بغير المسلمين بأنهم لا فهم لهم من ناقلي القرآن، إنما نسخت آية السيف حكمًا واحدًا، هو إتمام العهد لمن عاهدوه من المشركين بالكف عن قتالهم، فنسخت ذلك، وكانت هذه الآية إعلانًا لهم بإلغاء عهدهم، وأنه لا يقبل منهم بعد ذلك إلا الإسلام، وهذا خاص بمشركي جزيرة العرب، أما أهل الكتاب فتقبل منهم الجزية إذا أَبَوا الدخول في الإسلام..

والأصل في التعامل مع كافة المشركين قوله تعالى: ـ "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين".. (سورة البقرة).. فمن قاتلنا قاتلناه، ومن سالمنا سالمناه، ولا يجوز العدوان بقتال من لا يقاتل، وهذه آية محكمة لا تقبل النسخ.."

حك الرجل ذقنه قائلًا:

ـ "فماذا تقول في قوله تعالى: ـ "إذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق"؟"

هز (يحيى) كتفيه في هدوء:

ـ "لم تكلف نفسك كالعادة عناء إتمام الآية الكريمة.. فقوله تعالى في سورة محمد: ـ "إذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منّا بعد وإمّا فداء حتى تضع الحرب أوزارها".. أي أن هذه الآية تتكلم عن وقت المعركة أي في وقت المعركة مع الكفار، فضرب في الرقاب والدليل قوله تعالى: ـ "حتى تضع الحرب أوزارها".. لذا تطبق هذه الآية الكريمة عند تواجه المسلمين مع الكفار وقت المعركة حتى تنتهي.."

لوح الرجل ذراعه هاتفًا:

ـ "ألا تعلم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حرّض على قتل (كعب بن الأشرف) قائلًا: ـ "من لـ(كعب بن الأشرف) فإنه قد آذى الله ورسوله"؟"
هز (يحيى) رأسه نفيًا قائلًا في حدة:
ـ "هذا مما تتخذونه دليلًا على جواز عمليات الاغتيال عندكم فأقول.. أولًا: أن (كعب بن الأشرف) كان من الكفار المحاربين لله ولرسوله ولدينه.. ثانيًا: ما يقوله الشيخ (صالح بن فوزان الفوزان) جوابًا على هذا الدليل: ـ "ليس في قصة قتل (كعب) دليل على جواز الإغتيالات، فإن قتل (كعب بن الأشراف) كان بأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو ولي الأمر و(كعب) من رعيته بموجب العهد، وقد حصلت منه خيانة للعهد اقتضت جواز قتله كفًا لشره عن المسلمين، ولم يكن قتله بتصرف من آحاد الناس، أو بتصرف جماعة منهم من دون ولي الأمر، كما هو حال الاغتيالات المعروف اليوم على الساحة، فإن هذه فوضى لا يقرها الإسلام لما يترتب عليها من المضار العظيمة في حق الإسلام والمسلمين"
مال الرجل بجسده حتى كاد وجهه يلامس وجه (يحيى):
ـ "اقتربت جلستك من نهايتها.. وأمسى الحكم عليك واضحًا أمام عيني.. فهلا تركت لنفسك فَرجَة بالباب ترجع منها تائبًا؟"

** ** **

(٨)

ضج منزل عائلة (أبو سليمة) الفسيح بالصياح والضحكات، وضاق على الرغم من اتساعه بمن حضر، وقد اعتاد الجيران على مثل تلك الحفلات شبه اليومية التي تستمر حتى شروق شمس الصباح التالي، عندما دلف إلى المكان رجل تبدو عليه علامات الوجاهة، تتبعه زوجته التي ترتدي من الثياب أغلاها ومن الحلي أنفسها، على بعد خطوات بعدهما دخل شاب ارتسم الضيق على ملامح وجهه جليًا، تقدم الرجل إلى داخل المنزل ناحية العجوز المقعد الذي توسط المدعوين، مرتديًا (طرطورًا) عاليًا فوق رأسه، ويضع صافرة يمتد طرفها وينكمش كلما أعطى زفيرًا أو استرد شهيقًا.

اقترب منه الرجل بابتسامة مطت شفتيه، وهتف:

ـ "كل سنة وإنت طيب يا جدي"

نفخ العجوز طرف الصافرة الورقي في سعادة فامتد يلامس وجه الرجل، الذي اعتدل، فوجد أحدهم يصرخ في أذنه:

ـ "فودكا ولا بيرة؟"

التفت ليرى فتاة في العشرينات من عمرها، تبدل بين قدميها متمايلة مع الموسيقى الزاعقة، وتحمل كأسًا في كل يد، قبلها في اندهاش:

ـ "(نانسي)!!؟ يخرب عقلك.. رجعتي من أمريكا إمتى؟"

قالت بحروف ملتوية، وكأنها لا تنطق الحروف بل تطير من فوقها:

ـ "امبارح بالليل.. رجعت للشقة اللي في الزمالك لوحدي.."

مد وجهه للأمام رافعًا صوته:

ـ "ليه؟ بابا وماما فين؟"

تابعت الفتاة رقصها، وهي تقول في عدم اهتمام:

- "بابي ومامي إنفصلوا في أمريكا.. هي سافرت لأخويا كندا تكمل الأجازة.. وبابي فتح فرع للشركة في أمريكا، وهيتابع الشغل من هناك.."

مد الرجل ذراعه إلى الخلف، حتى اصطدمت بجسد الشاب، فجذبه ناحيته:

- "(كريم) كان ناوي يسافرلك أمريكا.. لكن إنتِ عارفة بقى هو خجول قد إيه.."

صرخت الفتاة عندما رأته:

- "(كريم)! هاي!"

ثم تأبطت ذراعه، وأمالت رأسها على صدره:

- "يللا نخرج التراس.. عندي حكايات كتيرة عايزة أحكيهالك"

جذبته جذبًا ناحية الشرفة، فالتفت في ضيق إلى والده الذي أشار له في حماس أن يذهب معها، دخلا إلى الشرفة، وأغلقت بابها الزجاجي، فخفت الضوضاء، وإن لم تختفِ.

مدت يدها ناحيته بأحد الكأسين، فرفع كفه رافضًا، ثم استدار مستندًا إلى سور الشرفة.

- "إيه مالك؟"

التفت يتأملها في شرود:

- "مالي؟"

حركت كتفيها مقتربة منه:

- "مفيش وحشتيني!؟ ده إحنا مخطوبين من شهر ماتكلمنش فيهم مرتين على بعض"

أشاح بوجهه عنها، فانعقد حاجباها، وهي تعود إلى مكانها مرة أخرى.

- "دايمًا متغير.. كل مرة بتتغير عن المرة اللي قبلها.. سرحان ومش مركز لا معايا ولا مع أي حد تاني"

التفت إليها مرة أخرى بعينين خاويتين:
ـ "إنتِ عاجبك حالك كده يا (نانسي)؟"
وضعت الكأسين على سور الشرفة، وارتكنت إليه:
ـ "قصدك علشان طلاق بابي ومامي؟ ده اختيارهم في الأول والآخر.. وأنا مقدرش أجبرهم يعيشوا مع بعض، ويتجاهلوا مشاعرهم.. دي مسألة حرية شخصية.."
هز رأسه في قوة:
ـ "مش قصدي كده.. أنا أقصد.. يعني مثلًا مفكرتيش تتحجبي؟"
نظرت إليه في اندهاش، وكأنها تراه للمرة الأولى، قبل ان تنفجر ضاحكة، وهي ترجع رأسها إلى الوراء:
ـ "أتحجب!؟ إيه اللي جاب الفكرة دي في دماغك؟"
اعتدل واقفًا، وواجهها في غضب:
ـ "دي مش فكرة.. ده أساس دين!"
ضيقت عيناها، وقد أقلقها غضبته المفاجئة:
ـ "ماكلمتنيش في الموضوع ده قبل كده يعني.. وبعدين طول عمرك بتشوفني وأنا مش محجبة، وماعلقتش"
قلب كفيه قائلًا في حزم:
ـ "مش عيب إن الواحد لما يشوف عنده حاجة غلط إنه يغيرها"
قالت في حدة:
ـ "ده لو شايف إنها غلط"
ـ "لكن هي غلط.. حتى لو إنتِ مش شايفة إنها كده.. هي غلط"
زمت شفتيها في تحد، ثم أمسكت أحد الكأسين، وجرعت ما فيه دفعة واحدة، قائلة:

ـ "أنا مقتنعة باللي أنا بعمله.. ودي حرية شخصية"
ـ "ده آخر كلام عندك؟"
صمت تتأمله بعناد، وهزت قدمها في توتر، فأطاح بساعده الكأس القابع على سور الشرفة في حركة عنيفة جعلتها تجفل إلى الخلف، وفتح باب الشرفة ليخرج مغادرًا المنزل كله دون كلمة أخرى.

*****

انتهى المصلون من أداء صلاة الصبح، وقام بعضهم لأداء ركعتي السنة، بينما تسرب البعض الآخر إلى خارج المسجد، انتظر (كريم) بجوار باب المسجد قابعًا في المنطقة التي لم تطلها يد النور، وقف في صبر يتابع المنصرفين، حتى خرج شيخ المسجد، وأوكل حراسة المسجد إلى القفل الكبير الذي أحكم غلقه على ضرفتي بابه، اقترب منه (كريم)، وهمس في خفوت:
ـ "صباح الخير يا شيخ.."
التفت إليه الشيخ، وعلى وجهه ابتسامة واسعة:
ـ "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. مش دي أحسن؟"
هز (كريم) رأسه في خجل، فتأمله الشيخ متفحصًا:
ـ "إنت ما صليتش معانا.. مش كده؟"
أمسك (كريم) طرف سترته الجلدية قائلًا:
ـ "مقدرتش أدخل أصلي وأنا راجع من المكان اللي كنت فيه.. ريحة هدومي كلها خمرة.. وجايز كمان يكون منها اللي مسني دون قصد"
لوى الشيخ عنقه في تحسر متمتمًا:
ـ "لا حول ولا قوة إلا بالله.. يا ابني لو شغل سيبه، وربنا يعوضك باللي أحسن منه.. مفيش أكبر من خسارة دينك"
غمغم (كريم):

- "يا ريته كان شغل يا سيدنا.. كان الواحد تنتهي مشاكله بشغل تاني.. لكن دي حياة كاملة"

ثم التفت إلى الشيخ، وكأنه تذكر أمراَ:

- "أنا جيت أسألك في موضوع تاني يا شيخ.. هل الحجاب فرض!؟"

ابتسم الشيخ في هدوء:

- "لأن الجامع في منطقة راقية زي ما إنت شايف.. ده من أكتر الاسئلة اللي بنتسألها.. والإجابة بسيطة جدًا.. الحجاب فرض واضح وصريح على كل مسلمة بأدلة كتيرة من القرآن الكريم والسنة المطهرة"

ضيق (كريم) عينيه متسائلًا:

- "زي إيه مثلًا؟"

أمسك الرجل بيده، وسار مستندًا على ذراعه:

- "زي الآية الكريمة في سورة النور.. "وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن".. صدق الله العظيم.. ومعروف عند أهل اللغة أن الخُمر هو غطاء الرأس والجيب هو شق الصدر أو طوق الملابس.. فالآية واضحة في فرض الحجاب على المسلمات.. كمان قوله تعالى في سورة الأحزاب: - "يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورًا رحيمًا".. ومعنى كلمة جلابيب في اللغة هو الثوب الواسع اللي بيغطي رأس المرأة وصدرها"

ساعده (كريم) على امتطاء الرصيف الذي سد طريقهما، وهو يقول:- "لو الكلام في الموضوع ده واضح كده.. ليه في بنات لسة بتقول إنه حرية شخصية، ومتروك للاقتناع"

رفع الشيخ سبابته محذرًا:

ـ "مفيش حاجة اسمها حرية شخصية في أمر مفروض في الدين.. ربنا سبحانه وتعالى بيقول في سورة الأحزاب: ـ "وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراَ أن يكون لهم الخيرة من أمرهم".. لكن في بعض الناس اللي يحبوا أن تشيع الفاحشة بين المسلمين بيضحكوا على عقولهم بتفسيرات مريضة.. زي مثلًا إنه يقول إن الخُمر معناها الضم والستر والجيوب زي ما قولنا هي شق الصدر.. وكان من عادة نساء العرب إنهم يلبسوا ثياب واسعة الجيوب تكشف الصدر.. فالقرآن نزل يأمرهم بلبس هدوم تداري صدرهم، لكن يكشفوا شعرهم عادي!! وفي اللي يقولك الحجاب عادة بدوية.. كلام لو اتعرض على طفل لأنكره.. لكن تقول إيه في أصحاب النفوس المريضة!"

في حيرة نظر (كريم) إلى الشيخ:

ـ "ويبقى عليا ذنب لو صممتْ على عدم لبس الحجاب؟"

توقف الشيخ لاهثًا، وتكلم بأنفاس متقطعة:

ـ "لا تزر وازرة وزر أخرى.. كل إنسان هيتحاسب على اللي قدمته إيديه هو مش إيدين حد تاني.. قولّها، وصمم إنت، ولو ما عملتش يبقى حسابها عند ربها.. وافتكر دايمًا.. "لست عليهم بمصيطر".. ده كلام ربنا لسيدنا النبي صلى الله عليه وسلم"

تمتم (كريم) بترديد الصلاة على الرسول، عندما أشار الشيخ إلى البناية التي توقفوا أمامها:

ـ "وصلنا البيت.. فكر في الكلام اللي قولتهولك.. وأتمنى بكرة أشوفك في المسجد.."

صافحه (كريم) في قوة، وانتظر حتى اختفى الشيخ داخل البناية، ثم حث خطاه إلى منزله.

*****

دلف (كريم) إلى المنزل مع بزوغ شمس اليوم الجديد، فتح الباب ليطالعه وجها والديه القلقين، وقد جلسا أمام الباب، ما زالا في ثياب الحفل ما يدل على قرب عودتهم، بادره أبوه قائلًا، وهو يشبك أصابعه:

ـ "كنت فين؟"

لم يرد، أغلق الباب، وسار ناحية السلم الرخامي، فهتفت أمه:

ـ "موبايلك مقفول من ساعة ما مشيت من الحفلة.."

التفت إليها صارخًا في شراسة:

ـ "محدش يسألني من النهاردة كنت فين أو كنت مع مين! لأني مش هكون مع اللي بتكونوا معاهم تاني أبدًا!"

انكمشت أمه مغمغمة:

ـ "كنا قلقانين عليك.."

استمر في صراخه الثائر:

ـ "من إمتى؟ أول مرة أسمعك بتقوليها.. كنتي بتقلقي على فساتين الديفليه اللي هتروح من إيدك.. أو عربية السنة اللي لازم تكوني أول واحدة تظهر بيها في النادي.. أو حفلة راس السنة اللي لازم تكون عندك مش عند حد تاني.. من النهاردة مش هحضر حفلات من دي تاني.. والهدوم دي..."

قالها، وهو يخلع ملابسه، ويلقيها أرضًا.

ـ "لازم تتحرق يمكن تطهر.."

ثم خلع الدبلة الفضية من إصبعه الأوسط، وألقاها عند قدمي أبيه:

ـ "وصّل دي لبنت الملياردير اللي اخترتهالي زي ما اخترت كل حاجة تانية في حياتي.. قولها تدور على حد تاني يحب يسافر فرنسا مرتين كل شهر يعمل شوبينج.. وقولها إن حياتها زي حياتكوا قرف.. ورغم إنكوا شايلين أغلى أنواع العطور في جيوبكم كنت دايمًا بشم منكوا ريحة عطن.. عطن يخنق.."

صعد بعدها الدرج في سرعة، تاركًا وراءه أبوين مذهولين لا يستطيعان التفوه بكلمة، قبل أن يتوقف دون أن يلتفت إليهما ليقول:

ـ "من النهاردة بيتي هو أوضتي.. لحد ما ألاقي مكان تاني أقعد فيه.."

دخل بعدها إلى غرفته، وأغلق بابها في دوي هائل.

*****

قبل الظهيرة، كان (كريم) يعدو في طرقات النادي المخصصة للجري مرتديًا زيه الرياضي، عندما اقترب منه شاب مفتول العضلات، فارع القامة ليجري بجانبه، قبل أن يهتف، وكأنه قد تفاجأ برؤيته:

ـ "(كريم)!! إنت فين بقالك مدة مختفي؟"

التفت إليه (كريم) مبتسمًا:

ـ "إنت اللي فين يا (يوسف)؟ سألت عليك في درس الجودو قالوا إن ليك فترة مابتحضرش.."

ضحك (يوسف) بقوة:

ـ "كان عندي دروس أهم أحضرها.."

أمسك بمعصم (كريم)، وانحنى على ركبتيه يلتقط أنفاسه، ثم رفع رأسه إليه قائلًا بصوت متهدج:

ـ "ماتيجي نقعد نشرب حاجة ونتكلم.. عايز أسمع منك إيه اللي حصل بعد اللي اتكلمنا فيه"

اقتاده (كريم) إلى أحد الطاولات المتناثرة، وقص عليه ما حدث ليلة البارحة، وحتى صباحها، فكاد (يوسف) يقفز من على مقعده، وهو يهتف:

- "قالك ماتجبرش خطيبتك على لبس الحجاب.. ده من المفرطين في الدين بدون أدنى شك.. إنت متأكد إنه شيخ جامع!؟"

نظر إليه (كريم) قائلًا:

- "أومال هيكون إيه؟"

هز (يوسف) كتفيه:

- "يمكن يكون من شيوخ السلطان.. مش يمكن ده أكيد.."

مال (كريم) على الطاولة، وقال في غضب:

- "بالعكس.. ده شيخ أزهري محترم جدًا.. وأنا دايما بستفيد منه حاجات جديدة في كل مرة بسمعله"

ابتسم (يوسف) بجانب شفتيه مستهزئًا:

- "شيخ أزهري!!"

ثم قبض على ذراع (كريم)، وهو يهب واقفًا:

- "تعالى معايا الدرس اللي بحضره، وإنت تعرف يعني إيه شيخ يقدر يتكلم في كتاب الله وسنة نبيه"

ثم نظر إلى ساعة يده الملتفة حول معصمه الأيمن هاتفًا:

- "ميعاد الدرس كمان ربع ساعة.. نحضره وبعدين نتغدا سوا"

لم تفلح محاولات (كريم) المستميتة للتنصل من إلحاح زميله، فقام معه على مضض، وبدل ثيابه في كسل، قبل أن يصطحبه (يوسف) في سيارته الرياضية حتى مكان الدرس الذي لم يكن يبعد عن النادي سوى دقائق معدودة، وجد بعدها (كريم) نفسه أمام بناية شاهقة فخمة، لا يبدو على مظهرها الخارجي أنها تصلح لاحتضان مثل تلك الدروس، هبط (كريم) من

السيارة، ورفع رأسه متأملًا المدخل الرخامي ذو المرايا المتناثرة على جانبيه، وقف (يوسف) بجواره، وقد قرأ تساؤله داخل عينيه، فابتسم قائلًا:

- "مش لازم علشان نذكر ربنا نتجمع في عِشة.."

قالها، وتخطى مدخل البناية، فتبعه (كريم) في صمت، قبل أن يردف (يوسف):

- "وبعدين اللي بيدينا الدرس واحد من كبار أعيان بلده.. دلوقتي هتشوف.."

استقلا المصعد ذا الواجهه المذهبة، ولم ينبسا بحرف حتى خرجا منه أمام باب خشبي ضخم مزين بالكثير من النقوش، نقر (يوسف) فوقه ثلاثًا، ثم التفت ناحية (كريم)، وابتسم مشجعًا، وانتظر الرد في هدوء.. انفتح الباب عن شاب ملتحٍ، يرتدي جلبابًا أبيض حتى منتصف ساقيه، نظر إلى (كريم) في قلق، فلم يلتفت إليه (يوسف) وهو يجذب زميله إلى الداخل، ثم يقترب من الرجل عظيم اللحية والجسم والهيئة، الذي جلس على مقعد واسع قريب من الأرض، وقد تربعت قدماه تحته، وأمامه على الارض، جلس بعض الشباب ينظرون ناحيته في إجلال، التفت الرجل إلى الوافدين من فوق إطار عويناته المذهبة الأطراف، فقبل (يوسف) كتفه الأيمن، وجلس تحت قدميه، وأشار إلى (كريم) أن يجلس بجانبه.

- "(كريم) يا مولانا.. اللي كلمت فضيلتك عنه"

استدار الرجل مواجهًا (كريم) بجسده كله، وابتسم ابتسامة واسعة:

- "قلبك فيه الكثير من الخير يا (كريم).. وروحك مازالت على فطرتها تنكر الضلال، وتستوحش طريقه.. لكن عقلك تسكنه بعض المفاهيم الخاطئة التي سنصححها لك بإذن الله"

أشار إليهما ليتراجعا إلى حيث جلس باقي الشباب، الذين وضعوا أكفهم على كتف (كريم) مرحبين به، واحدًا بعد الآخر، قبل أن يكمل الرجل حديثه مرة أخرى في هدوء.

*****

أصبح (كريم) زائراً يومياً لشقة الشيخ المزدحمة دائمًا، يستمع إلى ما يقال في تلك الدروس بعقل متقد الانتباه، ولكن عندما كان يحاول تدوين أي ملاحظات للحديث في ورقة بحوزته، كان الشيخ ينهاه بشدة، ويخبره أنه لو كان الكلام الذي يتلوه عليه يصلح وضعه على ورق متداول بين الأيدي، كان هو أول من طبع الكتب، وأصدرها على نفقته الخاصة، ولكن المتربصين بالدين وبهم -هكذا يقول الشيخ- لن يتركوا مثل تلك الدرر، لتنتشر بين العامة، وتهديهم إلى طريق الدين الصحيح.

وكان (يوسف) يلازمه كظله وقت الدروس وبعدها، ينتهي الدرس فيذهبان إلى المسجد لحفظ الوِرد اليومي من القرآن، ثم يتناولان طعامهما سوياً في النادي، ثم يفترقان على أن يتقابلا قبيل صلاة المغرب، ليعتكفا في المسجد حتى الانتهاء من صلاة العشاء إيذانًا بنهاية اليوم.. لكنه ولأول مرة منذ شهور، يدخل (كريم) إلى الدرس فلا يجد (يوسف) منتظره وعلى شفتيه ابتسامته المشجعة، استمع إلى الدرس والقلق ينهش عقله، وانتظر حتى انتهائه في صبر، قبل أن يلتفت إلى أحد الشباب الذي هم بالمغادرة يسأله عن (يوسف)، فأجابه بأنه لم يره من يومها خرج من الشقة وهو يكرر الاتصال على هاتف صديقه مرات ومرات، يأتيه الصوت المسجل برتابة في كل مرة يعلمه بأن الهاتف مغلق.. عاد إلى المنزل، وصعد إلى غرفته في شرود، دون أن يلقي اهتماما لمن يقابله في طريقه، كما اعتاد في الفترة الأخيرة.

أخرج الهاتف من جيبه، وارتمى على فراشه، متصفحًا حسابه الشخصي، فوجد أحد الإخوة -كما اعتادوا على تسمية بعضهم البعض- ينشر على حسابه مقطعًا مصورًا كتب له عنوان: "خنزير علماني يدعو إلى ذكر علمانية الدولة في الدستور".. وضع الهاتف جانبًا في حنق، لكم يكره هؤلاء الكفرة من العلمانيين والليبراليين، كان قد سمع من أحد الإخوة أن العلماني يهدف إلى منع ممارسة أي من شعائر الدين في الطرقات، والاكتفاء بها في قعر البيوت فقط، والليبرالي يريد إطلاق يد الحريات في أي أمر يخص الفرد أو المجموعة، بالنسبة له هذا هو عين الكفر البواح، ومقصده الوحيد هو محاربة الدين حربًا صريحة، قبح الله كل من ينتهج فكرًا كهذا.. علا رنين هاتفه في تلك اللحظة، فاختطفه وألصقه على أذنه، ليأتيه صوت (يوسف) حزينًا:

ـ "أنا بتصل أودعك قبل ما أسافر"

سأله في قلق:

ـ "مسافر فين؟ وإيه أودعك دي؟"

صمت (يوسف) على الجانب الآخر للحظات، قبل أن يقول في تماسك:

ـ "أنا مسافر سوريا للجهاد.."

صاح (كريم) في جزع:

ـ "سوريا!؟ وإزاي متقوليش قبل كده!؟ إزاي خبيت عني طول الفترة اللي فاتت، وإنت بتحضر للسفر!؟"

قال (يوسف) في صوت متهدج:

ـ "الموضوع حصل بسرعة.. (كريم)! أنا طالب منك طلب"

سكت (كريم) محاولًا كتم دموعه، فأكمل (يوسف) قائلًا:

- "خلّي بالك من أمي.. مش عايزها تعرف إني سافرت إلا بعد ما أوصل أرض الجهاد.. وخلّي بالك من نفسك كمان.. هتوحشني.."

لم يستطع (كريم) السيطرة على دموعه، وهو يسمع (يوسف) يبكي قائلًا:

- "لا إله إلا الله"

ظل كريم ممسكًا بهاتفه في عدم تصديق، حتى سمع الصوت المميز لإغلاق الخط على الناحية الأخرى.

*****

طرق (كريم) الباب ثلاث طرقات سريعة متوترة، انفتح الباب، فخطا إلى الداخل في سرعة متوجها ناحية الشيخ، حتى توقف أمامه بخطوات هاتفًا في غضب:

- "إزاي متقوليش إن (يوسف) هيسافر سوريا قبل كده!؟ إزاي تخبوا عني حاجة زي دي؟"

نهض الشيخ من مجلسه مسرعًا، واعتصر ذراع (كريم) ساحبًا إياه إلى غرفة نومه، وأغلق بابها وراءه في إحكام، ثم التفت إليه ومحجرا عينيه يرقصان في غضب:

- "إزاي تقول الكلام ده قدام الشباب اللي بره!؟ وبعدين مين قالك إني أعرف حاجة عن الموضوع ده من الأصل!؟"

في ثورة صاح (كريم):

- "هو ميعرفش غيرك.. أكيد إنت اللي ساعدته على السفر"

طوح الرجل بذراعه محنقًا:

- "وافرض إن أنا اللي ساعدته.. إيه المطلوب مني دلوقتي؟"

عقد (كريم) حاجبيه قائلًا:

- "وليه اختصيته هو بشرف الشهادة؟"

جلس الرجل على طرف الفراش قائلًا:

- "لإنه هو اللي طلب"

فرد (كريم) قامته:

- "وأديني بطلب نفس طلبه.. أنا عايز أسافر سوريا.."

تأمله الرجل مضيقًا عينيه:

- "أنا كنت فاكرك متعصب علشان صاحبك سافر.. مش علشان كنت عايز تسافر قبله"

لوى (كريم) رقبته في غضب قائلًا:

- "أيوه زعلان علشان سافر وسابني.. لكن غيران أكتر!"

انحنى الرجل ناحيته قائلًا في هدوء:

- "مش ضروري تجاهد بنفسك.. ممكن تجاهد بمالك وإنت هنا.. الله عز وجل قدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في تسع مواضع في القرآن الكريم.. وقدم الجهاد بالنفس على المال في موضع واحد.. إخوانك المجاهدين هناك محتاجين أموالك تدعمهم أكتر ما يكونوا محتاجين فرد زيادة ينقص مؤنهم ولا يزيدها"

صاح (كريم) في قوة:

- "لكن يا مولانا الجهاد بالمال لا يوصل إلى بغيتي.. الشهادة في سبيل الله.. وبعدين الجهاد بالمال ده للعاجز اللي ميقدرش على حمل السلاح.. لكن أنا أقدر"

طأطأ الرجل رأسه قليلًا مفكرًا، ثم رفعها إليه مرة أخرى قائلًا:

- "تروح مدينة اتشي؟"

عقد (كريم) حاجبيه مرددًا:

- "اتشي!؟"

أومأ الرجل برأسه:
ـ "أيوه.. دي مدينة في أندونيسيا.. الوحيدة اللي بتحكم بالشريعة.. وبنجهز المجاهدين فيها، لفتح باقي المدن في الدولة قريبًا إن شاء الله.. فترة تتلقي فيها تدريبك، حتى تصبح مستعدًا للسفر إلى سوريا"
هز (كريم) رأسه نفيًا في قوة:
ـ "أنا جاهز تمامًا للسفر لأرض الجهاد.. ومش محتاج تدريب من أي نوع"
ظل الرجل يتأمل ملامح وجهه للحظات في صمت، قبل أن ينهض إلى خزينة ملابسه، ويخرج ورقة مطوية من أسفل ملابسه المطوية في عناية، ثم يمد يده بها إلى (كريم) قائلًا:
ـ "اسمعني كويس في اللي هقولهولك، لإني مش هعيده تاني تحت أي ظرف.. السفر لسوريا دلوقتي بيكون عبر تركيا.. لازم الأول تقدم طلب إذن سفر للخارج.. الموافقة الأمنية دي بتطلع في خلال أسبوعين.. بعدها بتروح السفارة التركية، وتطلب تأشيرة سفر للسياحة، ودي بتبقى لمدة ٣٠ يوم.. في تركيا ممكن تاخد من المطار طيارة داخلية للحدود السورية، والرحلة بتاخد ساعة بـ٥٠ دولار.. أو ممكن توصل الحدود بالباص، وده بيوصل في عشر ساعات.. القرية اللي على الحدود التركية السورية اسمها الريحانية.. منسقنا من البدو اللي ساكنين في القرى المجاورة ليها هيستلمك من هناك لحد ما يوصل ليد المجاهدين في سوريا.. الرحلة كلها بتتكلف حوالي ٢٥٠ دولار.. يعني حوالي ٢٠٠٠ جنيه مصري.. وكل اللي قولتهولك مكتوب عندك في الورقة اللي بين إيديك.."
ثم رفع سبابته محذرًا، واتسعت عيناه:

ـ "أهم حاجة في الموضوع.. إياك ثم إياك بعد ما تقدم أوراقك للسفر إنك ترجع هنا تاني.. بمجرد ما تخرج من الباب دلوقتي الشقة أصبحت محرمة عليك.. مش الشقة بس.. العمارة كلها"

*****

طوال فترة انتظاره موافقة الأمن على سفره، ثم الحصول على تأشيرة الدخول إلى الأراضي التركية، مكث (كريم) في غرفته لا يخرج منها إلا فيما ندر، حتى الطعام كان يصل إلى غرفته في صمت، وقد تعود سكان البيت غرابة أطواره، كان هو على يقين بأنهم بالخارج يستقصون أخباره قبل إعطائه الإذن بالسفر، ويعلم أنهم لن يجدوا غرابة في أن يطلب -وهو ابن الملياردير المعروف- تأشيرة للسفر إلى تركيا للسياحة كعادة من ينتمي إليهم من نخبة المجتمع، فقط هو بحاجة إلى الانتظار دون أن يفعل ما يثير ريبتهم.. كان قد جهز حقيبته الرياضية التي يحملها عند ذهابه إلى النادي، فما أن أصبحت التأشيرة ملك يده، حتى رجع إلى البيت، وحملها في بساطة، وخرج دون أن ينظر إلى أحد من الموجودين.

وصلت الطائرة إلى مطار إسطنبول، وكان قد حلق لحيته تحسباً لعدم لفت الانتباه إليه حتى يصل إلى وجهته، دار بنظره في وجوه الجالسين، ولم يكن صعباً أن يتعرف فيهم وجوهاً قدمت إلى ما قدم من أجله، بعضهم يمتلك ملامح آسيوية، والبعض الآخر تظهر ملامحه الخليجية لكل ذي عين.

استقل الطائرة الداخلية التي تقطع البلاد حتى تصل إلى مطار هاتاي، ومنه استطاع أن يصل بسهولة إلى قرية الريحانية الحدودية التي أخبره عنها الشيخ.. بحث بعينيه عمن ينتظره، فلم يجد، فأخرج هاتفه يحاول الاتصال به، حين سمع صوتًا بدويًا زاجرًا من خلفه:

- "نحن لا نستعمل الهواتف في هذه المنطقة، لأنها مراقبة.. نتواصل من خلال الفايبر أو الواتس آب فقط"

التفت إلى مصدر الصوت في سرعة، ليبادره البدوي بالسؤال:

- "إنت المصري تبع جبهة النصرة؟"

أومأ (كريم) برأسه في صمت، فاستدار الرجل على عقبيه، وهو يشير إليه أن يتبعه، حتى وصلا إلى منطقة تجمع فيها ما يقارب العشرين شابًا، ووقف البدوي أمامهم هاتفًا:

- "نحن الآن سنعبر الحدود التركية إلى الأراضي السورية.. أريد منكم أن تضعوا أقدامكم لتطابق آثار أقدامي على الأرض.. ما أريد أحد منكم يلتفت عما أفعل، حتى لا نثير جنود الجندرمة، أو ياللي بتسموها حرس الحدود التركي.. مفهموم؟"

لم ينتظر منهم ردًا، بل أولاهم ظهره مقتربًا من الأسلاك الشائكة الفاصلة بين الدولتين، وسار بحذوها متفحصًا بعين خبير، حتى مد يده يباعد بين طرفي السلك المقطوعين، ثم يعبر إلى الناحية الأخرى يتبعه الشباب في صمت.

على الأراضي الزراعية بين البلدين، كان هناك المئات من السوريين يتحركون ناحية الحدود السورية في إرهاق، مروا بجانب مجموعة الشباب، واصطدم أحدهم بشاب مرتبك منهم في غير قصد، فسقط أرضًا، ثم نهض في غضب، ودفع الشاب في صدره، وما هي إلا لحظات وعلت الأصوات المتشاحنة الغاضبة من الجانبين، فترددت طلقات جنود الجندرمة فوق الرؤوس في غزارة، واقتربت سياراتهم في سرعة ناحية العابرين، فأسرع كل متسلل في طريقه، يأمل أن يعبر إلى وجهته، وإلا قبضت عليه القوات، وأعادته من حيث أتى.. مر البدوي إلى الناحية الأخرى من الجبال المتناثرة بين البلدين،

حيث بوابة الغنم، وهي المنطقة التي تعبر منها الأغنام، حيث كان يتم تهريب الثروة الحيوانية من سوريا إلى تركيا، غاصوا داخل بركة اختلط فيها روث البهائم مع لزوجة الوحل جعلت السير فيها ضربًا من الجنون.. خطوات أخرى تقطع الأنفاس، حتى وصلوا إلى السلك الشائك للجانب السوري، وتحديدًا إلى المعبر الحدودي باب الهوى، الذي عبروه إلى داخل بلدة سرمدًا، فتغير الهواء وأصبح سوريًا.

*****

أيام قليلة قضاها في التدريب، حتى أصبح جاهزًا للانضمام إلى كتيبة المحاربين، أيام عرف فيها أن الجهات المتناحرة على أرض سوريا كثيرة، وكل له مأربه الذي لا يخفيه، عرف أن هناك الجيش الحكومي والذي معظم قادته من العلويين، وهناك الجيش السوري الحر، والذي يضم تحت لوائه عدة تنظيمات، منها لواء الضباط الأحرار الذي أسسه حسين هرموش، والذي قد تم الدعوة إليه قبل الجيش الحر بشهرين، ولكنه في الأخير انضوى تحت قيادته، وهناك جبهة النصرة لأهل الشام والتي ينتمي إليها، وهي تنتمي للفكر السلفي الجهادي، كما أنها فرع من تنظيم القاعدة الأشهر، هناك أيضًا تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام، والمعروف اختصارًا بـ(داعش)، وله اليد الطولى على بعض محافظات سوريا. وعلى الرغم من الدمار الذي طال كل شبر من أرض سوريا، إلا أنه كان يشعر في كل خطوة فيها بفتنتها غير العادية، بنسماتها التي تزكم الأنوف عطرًا، وتمايل الأشجار القصيرة للزيتون الإدلبي في نعومة، حتى القمر في سماء سوريا كان مختلفًا، كان جميلًا في خجل، ولامعًا في حزن.

كان جالسًا على قارعة الطريق الذي يصل شمال إدلب بشرقها، بعد أن حرروا المنطقتين من سطوة الجيش السوري في عملية أطلقوا عليها (غزوة

إدلب)، وكان مرخياً سلاحه إلى جواره، عندما جلس قائد مجموعته بجانبه، ووضع سلاحه الآلي على فخذيه، واستند إليه في صمت.
بمجرد ما وضع قدمه على أرض سوريا سأل عن (يوسف)، وكيف يجده، فأخبره البعض أنه قد قُتل في إحدى المعارك مع قوات داعش في ريف درعا الغربي، وتحديدًا في المعركة التي دارت بينهما للسيطرة على بلدة سحم الجولان، يومها بكاه بحرقة جعلت قائد المجموعة القتالية التي ينتمي إليها يحتضنه مواسياً، بعدها صارا يجلسان معًا كثيراً، يحكي له قائده -الذي لم يستطع أن يحدد جنسيته ولم يسأله- عن الأيام التي قضاها في ليبيا محارباً على أرضها حتى صارت الغلبة للمقاتلين على السلطة، قبل أن يتركها منضمًا إلى جبهة النصرة في لبنان، وحربهم الدائمة والمستمرة مع حزب الله اللبناني خاصة على الحدود اللبنانية في مدينة عرسال ومرتفعات القبع والنقار، بعدها نزح إلى سوريا للمشاركة في تحرير أرضها وديانتها كما كان يقول دائمًا.
التفت إلى قائده بغتة، وسأله:
- "عندي سؤال يبان ساذج ومالوش معنى.. لكنه شاغل تفكيري من فترة، ومش عارفله إجابة"
التفت إليه الرجل في هدوء، فابتلع (كريم) ريقه، وسأل في حيرة:
- "إحنا هنا ليه؟"
أدار الرجل رأسه ناحية الطريق مرة أخرى:
- "السؤال ساذج بالفعل.. ربما يكون الأكثر سذاجة بين أسئلتك المتكررة.. نحن هنا لنصرة الدين.. نحن في كل مكان لنصرة ديننا فقط"

أطرق (كريم) برأسه إلى الأرض في صمت، وعبث بحذائه في الرمال تحت قدمه، فنظر إليه الرجل بطرف عينه، وقد أحس بعدم اقتناعه، فاعتدل ناحيته ممسكًا بكتفه في قوة، ونظر إلى داخل عينيه:
ـ "المعركة في سوريا بالذات معركة بقاء للأمة كلها.. معركة عقائدية طائفية بين الكفر والرفض من جهة، وبين الإيمان والسنة من جهة أخرى.. سوريا هي معركتنا الكبرى والأخيرة.. ولو سقطت سوريا في يد الروافض، فلتنتظر دول أخرى دورها في خنوع"
ـ "بنقاتل مين؟"
ـ "نقاتل النصيرية والمرتدين.. والشيعة التي تقف وراءها إيران بأموال الغرب.. الشيعة الذين يحركون جيش الدولة بكامل قواته الآن لقتل المسلمين السنة علنًا دون مداراة، وأمام أعين العالم كله"
هز (كريم) رأسه غير مستوعبًا للحديث:
ـ "طالما بنقاتل النصيرية والمرتدين.. ليه بنهجم على قوات الدولة الإسلامية كل يوم علشان ناخد منهم أرض أو يهجموا هما علينا، ويقتلوا مننا العشرات لنفس السبب؟ مش المفروض إنهم مسلمين، وفي نفس جانب الحرب معانا؟"
زاغت عينا الرجل على وجهه للحظات، قبل أن يشيح بوجهه بعيدًا في غيظ، عندما سمعا صوت محرك سيارة قادمًا على الطريق، فهب الرجل في سرعة مختطفًا سلاحه، ووقف أمام السيارة ليقطع الطريق عليها بجسده.
اقترب من نافذة السيارة، ثم انحنى عليها متطلعًا إلى الداخل في صرامة، وهتف:
ـ "لوين رايح؟"
تكلم أحد الرجلين الموجودين في السيارة قائلًا في توتر:

- "رايحين الشغل.. عندنا حانوت في شرق إدلب"

ازدادت النظرة داخل عينيه صرامة، وهو يسأل:

- "إنتوا سنة ولّا شيعة؟"

نظر الرجلان إلى بعضهما في توتر، ثم همس الأول بصوت مبحوح:

- "سنة"

تفرس في ملامحهما قائلًا:

- "هلأ بعرف.. صلاة العصر كم ركعة؟"

هتف الرجل الثاني في سرعة:

- "أربعة.. ولا سنة بعدية"

أومأ القائد برأسه في استحسان، وأشار إلى الطريق محذرًا:

- "أحكامنا هلأ بتسري على شرق إدلب.. إغلاق المحال وقت الصلاة، وإلّا شهر إغلاق للمحل، وشهر حبس لصاحبه"

ثم اعتدل مبتعدًا عن السيارة، وصرخ فيهم أن يتحركوا، عندما سمع (كريم) الرجلين يتكلمان همسًا:

- "معقول ما بيعرف إن الصلاة واحدة عند السنة والشيعة!؟"

- "لو بيعرف ما بيكون هون"

استمع (كريم) إليهما في صمت، قبل أن يضع رأسه بين كفيه، ويعبث في الرمال بقدمه مرة أخرى في شرود.

*****

في اليوم التالي، استيقظ من غفوته القصيرة بعد الظهر على صوت جهوري يأمرهم بالتجمع، فخرج إلى الشارع مستفهمًا ليرى امرأة سورية أربعينية العمر ترتدي عباءة سوداء، وتجلس القرفصاء أمام رجلين من المقاتلين،

تنظر إلى الأرض في استسلام، ثم ترفع رأسها لمرات قائلة في توسل من وسط دموعها:

ـ "ولادي يا شيخ.. والله يا شيخ هيدي وشاية، وأنا ست حرة.. أهل جوزي انضموا إلكن، وهددوني بياخدوا مني عيالي وأنا رافضة.. ولادي بيموتوا بعدي يا شيخ!"

في كل مرة كان يتجاهلها الرجلان، وهما ينظران إلى الجمع أمامهما في صلابة، حتى هتف أحدهما قائلًا:

ـ "بسم الله.. والصلاة والسلام على رسول الله.. يقول تعالى: ـ "إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم".. صدق الله العظيم.. فقد ثبت بالدليل القاطع أن هذه المرأة كانت تمارس البغاء.. واتخذت بيتها وكرًا لهذا الفعل المحرم.. وعليه فقد أصدر الحكم عليها مجموعة من أكابر العلماء.. ونسأل الله تعالى أن يكون تطبيق هذا الحد عليها مطهرة لها في الآخرة"

قالها، وابتعد خطوة إلى الوراء، فألصق الرجل الثاني سلاحه برأسها في سرعة، ورفعت هي رأسها قائلة:

ـ "ولادي يا ش...."

انطلقت الرصاصة إلى رأسها لتسكتها، فانضغط جسدها إلى الأسفل، قبل أن ينفرد كالزنبرك قافزًا خطوتين إلى الوراء، تعلو حول جثمانها الصيحات بالتكبير وإطلاق الرصاصات في الهواء.

أحس (كريم) بضيق يملأ صدره، فانسحب إلى الغرفة الواسعة التي يحتفظون فيها بأسرى المعارك، حتى يتم الفصل في مصيرهم، تخطى رقاب الجالسين حتى وصل إلى كومة من الأشولة في ركن الغرفة، فألقى جسده

عليها، وأسند رأسه إلى الحائط، عندما سمع أحدهم يخاطبه بصوت هامس:

ـ "إنت مو سوري.. مو هيك؟"

التفت يتأمل الشاب مبعثر الشعر والثياب بجانبه، ظل يحدق في وجهه للحظات، قبل أن يومئ برأسه إيجابًا، فهمس الرجل مرة أخرى في ضعف:

ـ "أنا على لحم بطني من يومين ما كلت إشي"

نهض (كريم) مسرعًا ناحية الرجل الواقف على باب الغرفة، وتحدث إليه للحظات مشيرًا إلى الشاب، ثم عاد إلى مكانه مرة أخرى في بطء، ولم ينبس الشاب ببنت شفة أخرى متشاغلًا بالنظر إلى الأرض في شرود، حتى قدم الرجل حاملًا صحنًا يحوي عجينًا ما وضعه أمامه قائلًا:

ـ "تزهرم"

ابتسم الشاب بجانب فمه ابتسامة باهتة، ثم رفع الملعقة إلى فمه مغمغمًا:

ـ "بعد ما كنا ناكل المغشوشة والنمورة.. صرنا ناكل عجين"

ثم التفت إلى (كريم)، وتأمل ملامحه قائلًا:

ـ "سمعتك بتكلم الحارس.. إنت مصري؟"

أومأ (كريم) برأسه مرة أخرى، ثم مال على الشاب مستفهمًا:

ـ "يعني إيه تزهرم دي اللي الحارس قالهالك؟"

ابتسم الشاب على الرغم منه قائلًا:

ـ "يعني عندكوا بالمصري.. اتسمم"

ثم مد يده مصافحًا:

ـ "اسمي (سليمان)"

ـ "(كريم).. (كريم أبو سليمة)"

دفع (سليمان) بالطعام إلى فمه دفعًا، وهو يقول:

ـ "يدك ناعمة يا (كريم).. يعني كنت عايش في مصر مرتاح.. ليش جيت على سورية؟"
هتف (كريم) في قوة:
ـ "أنا جاي أحرركم.. وأدافع عن المسلمين السنة اللي بيموتوا كل يوم على إيد الشيعة والنصيرية"
ابتسم (سليمان) في سخرية مرددًا:
ـ "الواه الواه! على إيد الشيعة والنصيرية!! مين قالك ها الكلام؟ الشيعة هما ياللي محجوزين تحت يدك الحين"
عقد (كريم) حاجبيه قائلًا:
ـ "إنت شيعي؟"
صمت (سليمان) دافنًا رأسه داخل الصحن الذي بين يديه، بينما تكلم (كريم) في غضب:
ـ "تبقى مشارك في كل مجازر النظام ضد المسلمين السنة"
قال (سليمان) دون أن ينظر إليه:
ـ "ابن أخوي مات في مجزرة جمعة أطفال الحرية في ساحة العاصي بحماة.. الله ينتقم من النظام، وأعوانه يا رب"
ازداد إنعقاد حاجبي (كريم) هاتفًا:
ـ "إزاي شيعي وإزاي بتدعي على النظام اللي كل رؤوسه من الشيعة؟"
وضع (سليمان) الصحن بجانبه في غضب، والتفت إلى (كريم) صائحًا:
ـ "قادة الجيش والحكومة ياللي هما من الشيعة ما بتفرق معاهم شيعي ولّا سني.. تفرق فقط مؤيد ولّا معارض لنظام حكمهم.. هدول ناس نسيوا الشيعة والسنة، وصارت معركتهم معركة حياة.. معركة للبقاء على كرسي السلطة وبس.. كتير من الشيعة معارضين للنظام.. منظمة العمل الشيوعي

ياللي أغلب قادتها من العلويين اتعرضت للتنكيل والتعذيب على يد النظام وأتباعه في بداية الثورة.. لكن حتى الشيعة المعارضين للنظام ما بيتمنوا إن النظام يرحل.. مو تأييد له لكن خوف من اللي جاي من بعده.. خوف ليرجع اضطهادهم مثل ما كان بيحصلهم من أيام الدولة العباسية.. مثلهم مثل النصيرية ياللي خايفين من السلطة اللي ممكن تحل محل السلطة الحالية بعد ما أمنت ليهم الحماية والحقوق.. وعلى فكرة سِنيين كتار مثل المفتي وخطيب الجامع الأموي بيأيدوا النظام وبيساعدوه، لكن ما جبت سيرتهم لإنهم سنيين.. الحرب ياللي بتتكلم عنها ما هي إلا صراع سوري على السلطة مو على الدين.. بين نظام لوث الدم كراسيه ومازال متمسك بيها.. وبين شعب بكل طوايفه كان حلمه يعيش ويتنفس حرية مثل باقي الشعوب.. تعرف مين أفسد ها الثورة.. إنتم.. إنتم ياللي جعلتوا للنظام الظالم شماعة يعلق عليها أخطاؤه أمام العالم بأنها دفاع عن أرض سورية ضد مؤامرات إسرائيلية وغربية.. وفي الحقيقة هي حرب للمصالح فقط.. لا للدين من ناحيتكم ولا للأرض من ناحيتهم.. وكل كلام آخر هو شروي غروي فقط"

ضيق (كريم) عينيه في عدم فهم، فابتسم (سليمان) قائلًا:

- "يعني كلام فاضي يا أخ (كريم)"

*****

ساعتان قضاهما (كريم) بصحبة صديقه الجديد، حكى له فيهما (سليمان) أين كان يعيش مع زوجته السنية وابنته ذات السنوات الخمس، وكم كان سعيدًا معهم، حتى انتهت سعادته، أو (طلع من عيونه عامص) -كما قال هو- مع بداية الحرب الشنيعة التي أكلت أخضر سوريا ويابسها، ففرقت جماعات القتال بينه وبين زوجته بحجة أنه لا يجوز لرجل على المذهب

الشيعي أن يكون قواماً على زوجة على المذهب السني، المضحك المبكي في الأمر أن زوجته السنية كانت تؤيد استمرار النظام السوري الحاكم، بينما هو كان من أوائل الذين خرجوا في الثورة منادين بسقوط الحكم القائم.. كان هذا قبل أن يقصف جيش النظام المستشفى التي تعمل بها زوجته، فيفقدها، ويفقد معها جزءاَ كبيراَ من الرغبة في الحياة.
ساعتان جعلتا عقل (كريم) يدور داخل جمجمته حائرًا.. عدوه الإفتراضي أصبح مجبوراً على تأييد العدو الحقيقي.. ومادام العدو الحقيقي معروفًا.. لماذا تتصارع القوات التي تنشد انتصار الإسلام مع بعضها البعض من أجل قطعة أرض أخرى تحصل عليها!؟
ظلا يتحدثان حتى سمعا الصوت الجهوري يعود مرة أخرى يطلب من المقاتلين أن يتجمعوا في الميدان، فترك (كريم) صاحبه، وخرج من الحجرة قاصدًا الميدان وهو يحمل سلاحه، ويفكر.. بالتأكيد (سليمان) يكذب عليه لينجو بعنقه، هل يكفر بكل ما تعلمه والدروس التي كان الشيخ يصبها في أذانهم صباَ من أجل هذا الوقت القليل من الحديث غير المستند إلى أي دليل شرعي واضح!؟ أفاق من شروده على صوت قائد مجموعته من المقاتلين، واقفًا على الطاولة الرخامية في قلب الميدان، وهو يهتف:
ـ "أبشركم بأننا تمكنا بحول الله وقوته من أسر رجال وفد الأزهر المصري القادمين إلى سوريا لحضور ما سمي بمؤتمر المصالحة الوطني، والذي يرعاه النظام الدموي الفاسد.. وقد أصدرت لجنة كبار العلماء فُتية بإحلال دمهم لتعاونهم مع الكفار ضد جماعة المسلمين.. وعلى ذلك تقرر تنفيذ الحكم فيهم الآن وعلى رؤوس الأشهاد.. فليستوِ المجاهدون صفًا بأسلحتهم"

للمرة الأولى منذ حضر (كريم) إلى الميدان يلاحظ الشيوخ الواقفين عند طرف الميدان بزيهم الأزهري الممزق، وقد صفهم القيد فوقفوا على غير استطاعة، محنين رؤوسهم في صمت.

اصطف (كريم) مع أصحابه أمام صف الشيوخ، وتأكد من جاهزية سلاحه لإطلاق الرصاص، ثم صوبه ناحية الشيخ الذي رفع رأسه في ضعف مواجها قاتله، فاتسعت عينا (كريم) عن آخرهما، وانكتم صراخه على أعتاب حلقه.. كان شيخ الجامع الموجود في منطقة سكنه، والذي طلب منه النصيحة من قبل، فلم يؤخرها عنه، كان هو من ينظر إليه الآن، ويبتسم.. اهتزت يده الممسكة بالسلاح، وتجمد باقي جسده مشدوهًا، عندما سمع القائد يصيح:

- "صوب!"

سمع الشيوخ يرددون الشهادة في سكون، ورأى شفتي الشيخ تتحركان على نحو غير مسموع مخاطبًا إياه:

- "لست عليهم بمصيطر"

فحرك شفتيه هو الآخر دون صوت، والدموع تحتشد بداخل مقلتيه:

- "إلا من تولى وكفر"

اتسعت ابتسامة الشيخ، وهو يهمس:

- "فيعذبه الله العذاب الأكبر"

هز (كريم) رأسه نفيًا بقوة في غير اقتناع، والدموع تتساقط من عينيه في غزارة، حتى سمع صراخ قائده:

- "اضرب!"

أطلق رصاصاته التي اخترقت جسد الشيخ، فسقط هامدًا دون أن ينبس بحرف، بينما ظلت البندقية الآلية منتصبة على كتف (كريم) في شرود،

حتى اقترب منه قائده، وأمسك ماسورتها بكفه، ثم أنزلها أرضًا في بطء، وهو يحدج (كريم) بنظرات متشككة.
بعدها جر (كريم) قدميه جرًا، حتى وصل إلى الحجرة التي ترك بها (سليمان)، وما أن اقترب منها حتى شعر بحركة غير عادية بداخلها، فاندفع عبر الباب، وتوقف للحظات يحاول استيعاب ما يراه.. كان كل الرجال المحتجزين قد تجمعوا في ركن الحجرة مكدسين فوق بعضهم في خوف، في حين استلقى جسد (سليمان) في وسط الحجرة، وقد وضع كفه فوق صدره محاولًا إيقاف نهر الدماء المتدفق منه في غير جدوى، ووقف حارس الحجرة متأهبًا، والدخان مازال يتصاعد من فوهة سلاحه.. نظر (كريم) إلى الحارس مستفهمًا، فغمغم الرجل، وهو يشير ناحية جسد (سليمان) المسجى أرضًا:
ـ "كان بيحاول الهرب"
خطا (كريم) ناحية صاحبه في بطء، وانحنى على وجهه يتأمله، فابتسم (سليمان) كعادته هامسًا:
ـ "اسقيني دمعة مي"
أسرع (كريم) بوضع (زمزميته) على شفتي (سليمان)، وأسقط بعض القطرات بداخل فيه، حتى أرجع (سليمان) رأسه إلى الوراء مكتفيًا بما قد شرب، ثم أشار إلى (كريم) أن ينحني عليه أكثر هامسًا بصوت مرتجف:
ـ "بنتي من ساعة اعتقالي وهي بتختفي في سقيفة المنزل.. عدني إنك راح تاخدها، وتسكنها ملجأ أمين بعيد عما يقدروا يطولوها.. عدني"
همس له (كريم) في خفوت:
ـ "أوعدك"
أغمض (سليمان) عينيه مبتسمًا، ثم ردد في خفوت:
ـ "الله.. سورية.. حرية وبس.."

همدت حركته، فأراح (كريم) رأسه على الأرض في بطء، ثم التفت ناحية الباب، ليجد قائده ينظر إليه في صرامة.

*****

حاول (كريم) فتح القفل المثبت على الباب الخشبي الصغير، فلم يستطع، أمسك بكعب سلاحه، وضرب به الباب في قوة، فانفتح على مصراعيه، لم يستطع الرؤية في ذلك الظلام الدامس الذي يسود الداخل الضيق، أخرج كشافه الصغير، وانحنى يحشر جسده إلى الداخل، سقط ضوء الكشاف على بعض الأطباق المغلفة بالمشمع الرقيق، والتي تحتوي على بعض قطع البسكويت بجوارها زجاجة بلاستيكية مملوءة بالماء حتى منتصفها، وأخرى ساقطة على جانبها أرضًا فارغة، حرك ضوء كشافه، فسقط على وجه طفلة مذعورة تتسع عيناها في رعب، فخفض ضوء الكشاف إلى الأرض في سرعة، وهمس:

ـ "ماتخافيش يا (دانة).. بابا باعتني علشان أخدك، ونروحله سوا"

ثم مد ذراعيه ناحيتها هامسًا:

ـ "تعالي يلّا علشان هو مستنينا.. تعالي"

ظلت الطفلة على جمودها للحظات، قبل أن تلقي بنفسها بين ذراعيه بعد أن اطمأنت لكلامه، فاحتضنها خارجًا بهدوء، ثم حملها بين ذراعيه وقبلها، ونهض مغادرًا المكان كله، وما أن ابتعد لخطوات حتى سمع من يهتف مناديًا عليه:

ـ "(أبو سليمة)!"

التفت إليه في سرعة حاملًا الطفلة، فانطلقت رصاصة القائد لتسكن جبهة الطفلة على يده، فيرتخي رأسها على كتفه في هدوء.

صرخ (كريم)، وهو يسقط على الأرض بركبتيه، وهز جسد الطفلة الهامد بين يديه في قوة، ظل على هذه الحال لدقائق، قبل أن يضع جسد الطفلة على الأرض في بطء، وهو ينظر ناحية قائده في غضب، مطلقًا صرخات ثائرة قصيرة، ثم جرى ناحيته، وانحنى إلى الأسفل يتفادى الرصاصات التي أطلقها الرجل، وهو يتراجع جزعًا، حتى وصل إليه، واختطف بندقيته الآلية من بين يديه، ثم طوحها ناحية وجهه، وهو يصرخ في غضب، وما أن سقط الرجل أرضًا حتى صوب البندقية ناحية صدره وهو يلهث، فمد الرجل ذراعيه أمامه هاتفًا:

ـ "ماذا ستقول لهم إن سألوك عن سبب غيابي، وقد أخبرتهم أني معك في دورة استكشافية؟ هل تظن أنهم سيصدقون أكاذيبك، ولو اجتهدت في اختلاقها؟ سيقتلونك، وسيصلبون جسدك حتى تكون عبرة لمن يخالف أمرًا"

ثم أشار ناحية جسد الطفلة النائمة أرضًا:

ـ "هذه الطفلة شيعية.. وُلدت لتكبر وتظل شيعية.. فلا تحمل في نفسها إلا كل حقد وضغينة لكل من هو مسلم سني.. تذكر قصة (الخضر) عندما قتل طفلًا كان سيكبر ليرهق أبويه المسلمين بكفره"

صرخ (كريم) لاهثًا، وهو مازال مصوبًا ماسورة بندقيته نحو الرجل:

ـ "إنت مش (الخضر).. وأنا مش (موسى).. دول كانوا بيوحَى إليهم.. إحنا مش زيهم"

أشار الرجل إليه بكفه مهدئًا:

ـ "(الخضر) كان عبدًا صالحًا.. مثلي.. ومثلك"

ثم نهض في بطء ناظرًا إلى إصبع (كريم) الذي يكاد يعتصر زناد البندقية:

ـ "إرجع إلى رشدك.. نحن في جانب واحد ضد الكفرة ومحاربي الله ورسوله.. لا نتولى إلا من تولاه الله، ولا نتبرأ إلا ممن تبرأ منه الله"

مد يده في حذر ناحية ماسورة البندقية المصوبة إليه، وأنزلها في بطء، ثم اقترب من (كريم) الذي بدت على وجهه أقصى علامات الانهزام، وانهمرت دموعه على وجنتيه في صمت، فاعتصر ذراعه في قوة قائلًا:

ـ "أنت بحاجة إلى أن تعود إلى مصر لتستعيد جزءًا من عافيتك، وتصبح قادرًا على معاودة القتال من جديد"

ثم ألصق كفه بصدر (كريم) المرتجف، وأردف:

ـ "وبحاجة أيضًا إلى من يُفيق قلبك من غفلته الطويلة.. ويهديه إلى الطريق عسى أن يجد فيه ما يطمئنه.

** ** **

(٩)

تكلم الرجل في هدوء:

ـ "سأرشدك إلى باب التوبة فلا تخذل يدي الممدودة.. ألا تشعر بالأسى لحال المسلمين وما وصلوا إليه اليوم من ضعف وهوان على باقي الأمم؟ ألا ترى ما هم فيه من الخذلان لتخاذل قادتهم وأولي أمورهم وارتكانهم إلى الدنيا ومتاعها؟"

فرد (يحيى) ظهره معتدلًا على طرف مقعده:

ـ "منذ أن بدأت معك المناقشة وأن أعلم يقينا بأنك سوف تنفذ ما قد قررته لا ما سوف تقرره.. فمن البداية قد أسلمت أمري إلى الله ووجهت وجهي إليه.. فإليك فاعلم أن أقصى ما تستطيع فعله بي هو مراد الله في والذي قد سطره في كتابه منذ أن خلق الأرض وما عليها.. فلا خوف ولا فزع.. واعلم أنني أقولها طاعة لله لا لك وتقربًا من الله لا منك.. أنني بالفعل حزينًا على ما وصل إليه حال المسلمين من تفرق وشتات.. وأنني أدعو الله تعالى ليلًا ونهارًا أن يجمع شمل المسلمين، وأن يؤلف بين قلوبهم على كلمة منه سواء.. وأن قلبي يحزن حتى دنو سكونه عندما أرى تكالب الأمم علينا جماعة بعد الأخرى.. وأنني أدعو الله على كل حال أن يرزقنا قائدًا يجمع شمل أمتنا وتتحد أوطاننا تحت رايته لا بدعوى الإشتراكية أو الشيوعية، ولكن بدعوى الإسلام وتعاليمه السمحة التي تجمع ولا تفرق على أساس لون أو جنس أو مال.. ولكنني في نفس الوقت أرفض الإنجرار إلى شُعبِكم التي تفرقتم بها عن مذهب أهل السنة، واقتربتم بها من مذاهب المعتزلة أو الخوارج.. فإن المعتزلة قد قالوا: إذا كنا جماعة وكان الغالب عندنا أننا نكفي مخالفينا.. عقدنا للإمام، ونهضنا فقتلنا السلطان وأنزلناه، وأخذنا الناس بالإنقياد لقولنا، فإن دخلوا في قولنا الذي هو

التوحيد وفي قولنا في القدر.. وإلا قتلناهم.. والخوارج متى اعتقدوا الحق في شيء نفذوه بالسيف، ولهذا كان تاريخهم سلسلة حروب وخروج على الخليفة.. وكأنهم يرون ذلك فرض عين لا فرض كفاية.. ويكفرون مرتكب الكبيرة كما تفعلون.. وإنني من الفئتين أبرأ إلى الله تعالى"

هز الرجل رأسه نفياً في بطء:

ـ "لم يكن ذاك ما أردت سماعه.. وبعد أن أعطيتك الفرصة كاملة لإظهار حجتك، جاء دوري لأتلو عليك الحكم الشرعي في هذه المحاكمة العادلة.. فكما يقول الإمام (أبو حنيفة): ـ " من قال لا أعرف الكافر كافراً فقد كفر".. وعليه نقيم عليك حد الردة.. وقد حكمت عليك أن تُطعن حتى الموت"

مد ذراعه ناحية الشاب الذي استل خنجره من غمده حول خصره، واقترب من الرجل في بطء حتى أسكن الخنجر راحة يده، ثم تراجع خطوة إلى الوراء.

ظل الرجل جالساً على طرف مقعده، ونظر إلى داخل عيني (يحيى) قائلًا:

ـ "كلماتك الأخيرة"

ردد (يحيى) الشهادتين بشفتين ثابتتين، قبل أن ترتسم عليهما ابتسامة واسعة قائلًا في صوت قوي:

ـ "فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا"

عقد الرجل حاجبيه غضباً، ثم دفع نصل الخنجر، ليخترق صدر (يحيى) في عنف، والذي ظلت ابتسامته فوق شفتيه في ثبات، وإن وضح ضغط فكيه فوق بعضهما من الألم، أخرج الرجل نصل خنجره الغارق في الدماء من صدر (يحيى)، ليدفعه مرة ثانية بقوة أكبر، مقرباً وجهه من وجه (يحيى)، وهو يهمس في صرامة:

ـ "اصرخ"

ظلت ابتسامته ثابتة، وهو ينظر في عناد إلى داخل عيني الرجل، الذي أخرج نصل خنجره مرة أخرى، ليدفعه بأقوى ما لديه هامسًا بانفعال:
- "اصرخ!"
ارتخى جسد (يحيى) في هدوء، وإن تعلقت شفتاه بابتسامتها في صمت، بينما جذب الرجل نصل خنجره ليدفعه مرة أخرى في قوة، فاقترب منه الشاب في قلق، وانحنى عليه قائلًا:
- "مات يا مولانا.. مات ولم يصرخ"
التفت إليه الرجل صارخًا، وقد احمرت عيناه من الغضب:
- "بل صرخ.. صرخ حتى انفجر حلقه وجحظت عيناه.. صرخ حتى تشققت الأرض لصراخه، واهتزت جدران الحجرة ذعرًا.. صرخ كافرًا بمعتقداته وأفكاره، ومقسما على الاقتناع بما قدمنا له من حقائق.. صرخ وأنّى له ألا يصرخ! ليس له الحق ألا يصرخ.. هو لا يموت من أجل دين وفكرة أسمى.. نحن فقط من نموت من أجل الدين.. نحن من هانت علينا دنياهم، وهم من تعلقت قلوبهم بها تعلق العبادة.. صرخ ولكن صراخه لم يشفع، فمات ميتة الجاهلية"
ثم هب واقفًا، ودفع الشاب بذراعه، وفتح باب الحجرة في عنف خارجًا في خطوات سريعة، قبل أن يرفع يده الغارقة في الدماء ممسكًا بالخنجر في قوة وهو يهتف:
- "الله أكبر!"
انتفض أحد الجالسين على الأرض، أسفل الدرج الذي وقف الرجل على مقدمته واقفًا، وهو يصرخ:
- "تكبير!"

وقف الباقون في سرعة، وارتجت الدار بهتافهم مرددين التكبير، من بين أصواتهم العالية، ووجوههم المربدّة تستطيع تمييز وجوه (سيد) و(دسوقي) و(نجاح) و(كريم) بسهولة، وهم يلوحون بأيديهم في حماس.

تمت

مصادر تم الاستعانة بها في العمل

_ دراسة عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بعنوان (انتشار الإسلام بالطريق السلمي) للأستاذ : محمد فاوي

_ الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر للشيخ : صلاح نجيب الدق

_ مختصر منهاج القاصدين للإمام : موفق الدين بن قدامة المقدسي

_ الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية عن وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية

_ حجاب المرأة و لباسها في الصلاة لشيخ الإسلام ابن تيمية عن المكتب الإسلامي – بيروت

_ التطرف المنسوب إلى الإسلام : مظاهره و تفسير ظهوره و علاجه للدكتور : يحيى هاشم فرغل

_ منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية الجزء الأول تحقيق الدكتور : محمد رشاد سالم عن مؤسسة قرطبة

_ دراسة عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بعنوان (مجتمعنا الجديد و الشريعة الإسلامية) للأساذ : حسن الأشموني

_ تفسير ابن كثير للإمام : الحافظ ابن كثير طبعة بيروت – لبنان

_ التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) للإمام : فخر الدين الرازي

_ الجامع لأحكام القرآن و المبين لما تضمن من السنة و أحكام الفرقان للإمام : أبو عبد الله القرطبي

_ تفسير البحر المحيط للإمام : أبو حيان الغرناطي تحقيق الدكتور : عبد الرزاق المهدي

_ مجموع فتاوى و مقالات متنوعة للإمام ابن باز تجميع الدكتور محمد الشويعر

_ مجموع فتاوى و رسائل الشيخ ابن صالح العثيمين تجميع فهد السليمان

_ صحيح البخاري للإمام : أبو عبد الله بن اسماعيل البخاري

_ أحكام الجهاد و فضائله للشيخ : عز الدين بن عبد السلام - تحقيق : نزيه حماد

_ الإتقان في علوم القرآن للإمام جلال الدين السيوطي

_ نواسخ القرآن للإمام : أبو الفرج ابن الجوزي – تحقيق : محمد الملباري

الكاتب في سطور

محمد عبد العاطي السيد

قاص وروائي مصري

تخرج في كلية الصيدلة جامعة طنطا دفعة ٢٠٠٦.

صدرت روايته الأولى بعنوان رابطة دم في أوائل عام ٢٠١٥.

◄ إصدارات دار الفؤاد للنشر والتوزيع ►

الكتاب	النوعية	المؤلف
دقات على باب الغربة	أدب رحلات	عبد الحميد السنبسي
خفقات دامعة	رواية	رباب فؤاد
خيانة واي فاي	رواية	سلافه الشرقاوي
الخروج من مصر الجديدة	رواية	إسلام محمد عيسى
تحوت..الإله المنتظر	رواية	كريم الشهاوي
شقلب أحوالك	رواية	وليد نبيه
اديني عقلك وامشي حافي	مقالات ساخرة	محمد أبو جاد الله
جرعة نيكوتين - ط٢	مجموعة قصصية	محمد طارق
ثورة محظورة النشر	وثائقي	محمد عبد الغفار
أقرباذين	مجموعة قصصية	محمد سمير رجب
حب في زمن الثورة	كتاب جماعي	كتاب جماعي
أماليا	رواية	ميرفت البلتاجي
رسم قلب	كتاب جماعي	كتاب جماعي
ولادة متعسرة	مجموعة قصصية	دعاء سيف
فابريكا	ديوان شعر	عبده نافع
نقطة.. رجوع إلى السطر	رواية	سناء البريتيs
أصل الحكاية	رواية	محمد عبد العاطي


دار
الفؤاد
للنشر والتوزيع